حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

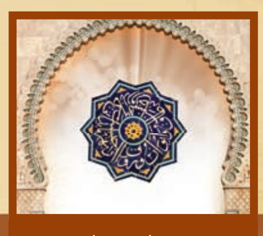
العدد: ٢٨ / السنة السابعة / (يناير - فبراير) ٢٠١٢
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول

عاشق الحقيقة

يا عاشق الحقيقة،
عَزْمَك قَدِّمْ، وبإيمانك تألَّق،
وفكرَك نَظِّمْ، وقواك فَجِّرْ...
فإذا حان الحين، ونضج الثمر المكنون،
حدث الانبعاث، وتمَّ النهوض،
وجاءتك الحياة تسعى،
ووضعتْ مفاتيحها بين يديك...
* * *


نحو سلطنة القلوب


مفارقة الإنسان والتقدم


الإنسان والبناء الحضاري

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٢٨
السنة السابعة
(يناير - فبراير) ٢٠١٢

صانع الحضارات

لعب "القلب البشري" عبر العصور والحضارات أعظم الأدوار.. فالحضارات منبعها حماس هذا القلب وشهامته واستشرافاته العالية وتطلعاته السامية.. فالفكر والفلسفة والشعر والأدب والفن وكل الوجدانيات في هذا العالم وكل الأفكار، هي من روافد هذا القلب. فهو في الحقيقة صانع الحضارات وباني المدنيّات ورافع الأمم إلى أعلى المقامات... فلا جرم أن نرى الأستاذ "فتح الله كولن" يكرس افتتاحية هذا العدد من "حراء"، للكلام عن ضرورة أن يكون للقلب البشري سلطنة روحية على مجمل حياة الإنسان، لكي يكون قادرًا على الارتقاء في سلّم المعارف عامة وسلّم المعرفة الإلهية خاصة.

والعلم هو واحد من الآيات التي جعلها الله تعالى حجة على الإنسان لكي يتعرّف عليه ويتعبّد له ويقوم بشكره.. فمقال الأستاذ "عبد المجيد بلعابد" "من الإنبات إلى النبات" يشير إلى واحد من نماذج الإعجاز الإلهي في خلقه ومخلوقاته.. وعن "أشواق الروح" يكتب الأستاذ "أديب الدباغ" وكأنه يرفد المعاني الكبرى التي جاءت في مقال الأستاذ "فتح الله كولن"، مبينًا أن مشكلات هذه الأمة ناجمة عن عجزها عن إشباع جوعة روحها قبل جوعة بطنها.. والأستاذ "عماد الدين خليل" يكتب عن "مفارقة الإنسان والتقدم" مستشهدًا ببعض آراء مفكري الغرب في ضرورة إيقاف عجلة الحضارة عن التدهور السحيق في ماديات الحياة الدنيا.. ويأتي الأستاذ "عبد الحليم عويس" ليكتب في "إحياء علوم الدين والدنيا معًا" وليس علوم الدين فقط، كما هو كتاب الغزالي "إحياء علوم الدين".. وعن "زيت الزيتون" وفوائده الصحية يكتب الأستاذ "حسان شمسي باشا".. وفي الحضارة يكتب الأستاذ "عبد الإله بن مصباح" "الإنسان والبناء الحضاري".. والأستاذ "عرفان يلماز" بعد أن انتهى من تشريح الجسم البشري مع تلميذه "عبد الله" فهو الآن يستنطق "عبد الله نفسه" لكي يشكر بلسان البشر جميعًا الخالق العظيم على إنعامه عليهم.. هذا الإنسان الذي تشكل كل جارحة من جوارحه آية من آيات الله تعالى تستوجب الشكر والامتنان.. وعن الإيمان وآثاره الشفائية، كما يقرر ذلك "علم الطب" يكتب "العطري بن عزوز" مستعرضًا شهادات الكثير من أطباء الاختصاص، ومن تجاربهم في هذا الشأن..

ومجلة "حراء" بمحرريها وبالقائمين على شؤونها، تنعي إلى قرائها بعظيم الحزن والأسى واحدًا من الرواد الأوائل الذين ساهموا بالكتابة فيها وهو الأستاذ الراحل "عبد الحليم عويس" الذي وافاه الأجل المحتوم بعد سنين من معاناته من مرضه العضال.. كما تنعي في الوقت نفسه الأستاذ "أحمد بهجت" الصحفي المصري الشهير الذي كان هو أيضًا، من الكتّاب الأوائل الذين ساهموا بكتاباتهم على صفحات "حراء" منذ أعدادها الأولى.. تغمدهما الله برحمته الواسعة وأسكنهما فسيح جناته.

المحتويات



الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا
معجزة زيت الزيتون
الماء والحياة في حضارة الإسلام
الزمن في منظور الأستاذ فتح الله كولن



حراء
www.hiramagazine.com

فتح الله كولن

نحو سلطنة القلوب

لقد قادت أمم عديدة شعوبًا شتى عبر الزمان في مختلف أرجاء المعمورة، وكانت أحيانًا عنصرًا من عناصر التوازن الدولي. ومَن يدري، ربما تظهر أُمم كثيرة أمثالها ولكنها جديدة في رؤيتها العالمية وفي تصاميمها الحضارية وفي نسيجها الثقافي. لقد كانت روما ومصر واليونان والصين والهند وكذلك تركستان -باعتبارها مهدًا لحضاراتٍ مختلفة- نقوشًا مهمة في زخارف هذا النسيج العام، أما تمثل الإسلام قرونًا طويلة على نحوٍ راقٍ في قارات عدة باعتباره عنصرًا من عناصر التوازن الدولي، فهو عمق آخر له مزاياه الذاتية.

وهذا الارتقاء إلى القمم والذرى الذي سجله التاريخ وما زلنا نشهده حتى الآن، لم يحصل كله دفعة واحدة في حِقبة واحدة، وهؤلاء الذين ظهروا على مسرح التاريخ، قد اندثروا واحدًا تلو الآخر، ثم تبعهم آخرون جاؤوا من بعدهم في مداوَلة تاريخية مستمرة متكررة. فالقمم والذُّرَى في فيزياء الأرض تتبادل مواقعها مع السهول والسهوب أو شواطئ البحار أحيانًا، والوديانُ السحيقةُ مع

الجبال والتلال أحيانًا أخرى. أجل، إن الزمان في جريانه كالسيل، يقدّم لطائفةٍ باقاتٍ من زهور الإقبال، ويطبع على طائفة أخرى بأختام الإدبار، ويمضي. وربما قفزت أمم من ذروة إلى ذروة أعلى بينما عجزت أمم أخرى عن أن تجد حفرة تقبع فيها، وقد كانت كلها تعيش في حقبة زمنية واحدة؛ لذا فإن القرون الوسطى كلها لا تُعَدّ قرونًا مظلمة للأمم جمعاء، كما لا يُعَدّ عصرُ التكنولوجيا والعلوم الذي نعيش فيه نورًا وضياءً للمجتمعات قاطبة.

نعم، إن المداولة التاريخية الدائمة ما فتئت تعيد نفسها في تشابه يكاد يكون عينها.. فظهر الارتقاء إلى الذُّرى هنا وهناك، وفي هذا العصر وذاك، ولم يجتمع ازدهار وانحطاط قط في قارة واحدة وفي عصر واحد. وكذلك هو الحال الذي نحن فيه اليوم؛ ففي مطلع القرن الحادي والعشرين، ثمة شعوب في بعض أنحاء العالم سبقوا عصرهم وتجاوزوا غيرهم على نحو تذهل له العقول؛ فقَدمٌ على القَمَر، وأخرى على مشارف كوكب آخر... وثمة ألوف من البؤساء في أنحاء أخرى خَيَّم عليها الظلام، ما زالت تئِنّ وجعًا بين براثنِ تخلف وبؤس موروثٍ من آلاف السنين. وبعد هذا كله فمهما اتسعت الحضارات وتقدمت التكنولوجيا، فسنرى قارات تزدهر بالعقول التي هاجرت إليها وأخرى تتزلزل بفرار العقول منها، وبينما تتدخل بعض البلدان دائمًا في كل شيء وفي مصير كل شخص على وجه الأرض وكأنها مركز إداري للتوازن الدولي، تُسام بلدان أخرى أسوأ الذل من جراء هذا التدخل المستمر.

وينبغي أن لا نرتاب في أن أمتنا -لا سيما الأجيال الناشئة منها- سيكون لها تأثير فكري بالغ وستكون صاحبة القول الفصل في القريب العاجل في حقبة الألفية الثانية، ما لم تعصف بها ريح معاكسة وما لم تُهدَر المكاسب بشكل أو بآخر. فإن أجيال اليوم السائرةَ في الطريق، التي تأهبت بشدّ معنوي تام لمنازلة الغبن والقهر والظلم الذي أصابها في القرون الأخيرة، بدأت تزفّ بشائر عظيمة عما سيتحقق من تجديدات جليلة في معظم طبقات المجتمع بعد الألفية الثانية مباشرة.

إن كلاًّ من الإيمان والمعرفة والمحبة لَيصل الإنسانَ بالكون كله، وفي الوقت نفسه ينجيه من غمّ الكثرة وآلامها، فيذيب وحدته ووحشته الداخلية بإكسير "معية" الحق تعالى، ويحوِّل حياتَه إلى متعة يرتشفها كأسًا بعد كأس.

هذا وإن الإيمان والعزم والثبات وعشق الحقيقة والفكر المنهجي مصادر قوة عظمى سوف تؤتي ثمارها حتمًا حينما يحين أوانها، وإذا بنا نعيش مرات عديدة "انبعاثًا" يحتضن الحياة بكل وحداتها.

وهذا "الانبعاث" القديم قِدَمَ تاريخ البشرية والذي يُعَدّ حظَّها السعيد وقدرها الميمون، إنما يتعيّن مضمونه ومحتواه اليوم حسب المستوى الفكري والثقافي للإنسان المعاصر، وحسب أعماقه الإنسانية وأمدائه الروحية وتحليقه الميتافيزيقي.

بات عصرنا في مطلع القرن الحادي والعشرين على حافة الفوضى التي أسلمت البعضَ لليأس بينما هَدَت آخرين -لم يخضعوا للظلام تمامًا- إلى شحذ الإخلاص والحماس الوطني في نفوسهم بما يتناسب مع سرائرهم النقية وأفكارهم الحرة. فغدت هذه الحال وسيلة لظهور مواهب كثيرة تضاهي العبقرية، وأثرت خاصة في دول العالم الثالث تأثير النفخ في الصُّور، مما أدى إلى ظهور انبعاثات متنوعة متعاقبةٍ. إن هذا العصر العفريت الذي كان مَحضنا لمَفاسد لم يسبق لها مثيل حتى الآن، كان في الوقت نفسه منطلَقًا للارتقاء العمودي وميناءً للإبحار والنهوض لأمثالنا من الأمم.

والأمر الوحيد الذي يقع على عاتقنا اليوم، هو أن نُهرَع دون هدر للزمن إلى أخذ موقعنا في التوازن الدولي بشعور جاد بالمسؤولية وانطلاقًا من هويتنا الذاتية. في الحقيقة إننا قد نعجز بوضعنا الحالي عن بلوغ الغد، بَلْهَ التقدمَ والتطور إن لم يكن لنا هدف على هذا النحو. أجل، ليس أمامنا اليوم إلا أحد خيارين: إما سعي مستميت فانبعاث... وإما خلود إلى الراحة فاستسلام للموت الأبدي.

والقرآن الكريم كثيرًا ما يعرض علينا هذه القضية.. قضية "نكون أو لا نكون".. ويحثنا من خلاله على تجديد الذات والحفاظ على حيويتها، يقول تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(إبراهيم:١٩)، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾(فاطر:١٦-١٧)، ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ

قَوْمًـا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُـوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمـد:٣٨)... وثمة آيات كثيرة أخرى شَرَّفَتْنا بالنزول في هذا الصدد، نكتفي بإيراد هذه النماذج منها لأنها ترشد إلى المطلوب.

وثمـة احتمـال قوي بـأن المعنيين بالإذهاب والاسـتبدال فـي الآيات الكريمة، هـم النفوس الميتة التي لـم تجدد ذاتها وأخفقـت في الحفاظ على حيويتهـا وفرَّطت في حق إيمانها وتَصـدّأ عالمهـا الداخلي، ومثلهم سـكّان العالـم الثالث، مع تقديرنا لما لديهم من معنى يدل عليه إيمانهم بالله. أما الخلق الجديد الذين سيخلفونهم فأولئك هم الجيل الجديد وكوكبة القدسـيين جمعاء، الذين اسـتوفوا ما لابد منه من شد معنوي أفـرزه شـحذ دؤوب منذ قرون في هـذا العالم؛ عالم الحزانى والمكروبيـن، والذيـن يُرجـى منهم أن يسـموا بإنسـاننا الذي يستهان به ولا يؤبه له حتى اليوم إلى قيم سامية ليس فوقها قيم.

لقد أغفل الغرب -وما يزال- قيمَه الدينية ووصايا السـيد المسيح ﵇؛ فشنوا الحروب في القارات وأشاعوا الاستعباد والاسـتغلال أينما حلوا؛ فلطخوا وجه العالم بالسـواد. فعالم الغـرب الآن حالم والكوابيس تنهشـه دائمًـا بين أنقاض عالم معنوي قوّضه بنفسـه فاسـتحال خرابًا في قلوب البشر، وبات قلِقًا مضطربًا تجاه ما تبدى في كل مكان من عقل سليم وفكر حـر... والأنكـى للجرح أن هـذا العالم -لأنه لا يـدري يقينًا أيـن أخطـأ- بات لا حيلة له البتة، مزعزَعًا جدًّا، مرتعشًـا إزاء ما يتوقع من لكمات الرأي العام الداخلي. ورغم أنه في حالة يرثـى لهـا كهذه ويتوقع أن يحاسـب نفسـه، نجـده يدافع عن نفسـه بصرف البشـرية إلـى الترف والسـفه والشـهوات حتى يتخلص من الفوضى الحالية.

إن هذا العالم يحاول أن يرُضي نفسـه بالمنجَزات العلمية والتكنولوجيـة أحيانًـا، وأن يُسـرِّي عن غمه بالثـروة والترف أحيانًا أخرى، لكن من البدهي أن أيًّا منها لا يَجلب للإنسـان سـعادة دائمة أبدًا ولا يلبي رغبة البقـاء والخلود المكنونةَ في أعماقـه. ولذلك، ما من شـيء يتخـذه دواءً وعلاجًا إلا ويزيد أفق أمل الإنسانية ظلامًا ويضفي على بؤسها الروحي بؤسًا.

إذن لنـدَعْ هـذا العالـم يتباهى بالعلـم والتكنولوجيا، رغم الفـراغ والاكتئـاب الذي غمر الحيـاة الاجتماعية من جراء ما اقترفـه ذلك العالم من خطإ فادح في نقطة الانطلاق، ولنتركْه يمتّـع نفسـه باللذائـذ والأذواق حتى حين، أو يُفنـي عمره... يرنو ببصره إلى آفاق الفضاء وهو هائم على وجهه في وديان أخرى بحثًا عن الروح والمعنى اللذين أضلهما في قلبه...

فنحـن منـذ جيليـن، في شـوق عـارم للعودة إلـى روحنا الذاتيـة بشـكل أسـرعَ سـيرًا وأدق منهجًـا ممـا شـهدنا فـي الماضي. فإن إنساننا الذي اعتاد أن يلجأ حتى الآن إلى المادة والآلـة ويقيسَ كل شـيء بالمعايير المادية، قد اسـتيقظ -ولو بقـدر ما مـن الوعي- على صفعـات متواليـة للتابوهات التي اسـتعبد نفسَـه لها منذ قرنيـن عبودية مَنْ لا يريـد عتقًا.. فبدأ يشـعر أنـه فريسـة منعطف تاريخـي.. وأيقن أن عليه أن يسـد الهوة السـحيقة بيـن ذاته وواقعه الحالـي، بالهمة والإخلاص والمحاسـبة وسـكب الدموع، وحمل عصـا الترحال في عزم وتوكل وثبات. وإنه ليمضي إلى الخلود في هذا المسير الذي لن ينتهي وإن انقطعت السبل قائلاً: "السياحة يا رسول الله!".[1]

وإن مصـدر قـوة روحـه الذي لابد منـه في هذا السـبيل، هو اكتشـافه حقيقة الإيمان تارة أخرى، وشعوره بها في وجدانه، وتغذيـة إرادتـه بعبوديتـه لله، حتـى يتهيـأ للتوجه نحـو الخير والصلاح، واستشـعاره بحقيقة: "لي مع الله وقت"، من خلال تعمقه المتزايد يومًا بعد يوم في شـعور "الإحسـان"، ثم تعلقه بـ"المـاوراء" على الدوام وكونـه ذا أفق ميتافيزيقي رحب. فإن وفقنا في التزود بمثل هذا الزاد المعنوي، فإن تلك البذور التي انتثرت اليوم بروح العبادة في أرجاء العالم كلها، ستدب فيها روح الحيـاة مع صيحات الربيع إذا ما حل موسـمها، وتحيي في أمة المغمومين هذه عهودًا وردية متعاقبة دفعة واحدة.

إن أجدى الأمور في بناء الجيل الحاضر، هو تيسير تنقّلهم بين عوالمهم الداخلية والكائنات جيئة وذهابًا من خلال شحذ عزيمـة التفكـر المنظم لديهـم، وكذا تحبيب الإيمـان والعلم والبحـث والتفكر إليهم بتدريبهم على قراءة الأنفس ومطالعة الآفاق كأنهم يقرؤون كتابًا أو يطالعونه.

فعلينـا أن نعرض تلك الرؤية العميقة على آفاق مداركهم بالوسـائل المرئيـة والمسـموعة، وأن نمكنّهـم مـن الاتصال بعوالـم أرحب بإنقاذهم من سـجن المـادة وضيق البدن، وأن نجلـو مـا في أرواحهم مـن كدر وكمد، وأن نعـرض أبهى ما تقتضيـه طبيعتهم الإنسـانية وأبلغَـه سـحرًا ودَلًّا على قلوبهم المتأججة شوقًا إلى ماوراء الآفاق البشرية، فإن وفقنا في ذلك فلعلها تكون بشرى لهم بانبعاث جديد.

وبدهـي أن الأرواح التـي لـم تـزكُ بالايمـان والمعرفـة والمحبـة فتتخفف، لن تَقْدر أبدًا على التحليق في الملكوت.

وبغض النظر عن ذلك، فإن تلك الأرواح الجائعة لا تنفك عن التلوث بالمطامع الدنيوية، فتفيض قلوبهم حقدًا وكراهية على الدوام، ويقع نظامُ الروح أسيرًا في قبضة جهاز النفس، فلا يهمهم بعد ذلك سوى الأكل والشرب والنوم والجلوس والقيام، ويغدون عبيدًا للبدن عبودية لا فكاك منها.

إن كلاًّ من الإيمان والمعرفة وتعلقِ القلب بالله، يهب روح الإنسان حقيقة فريدة هي المحبة، وينزع عنه الغل والكراهية والضعف البشري. أجل، إن كلاًّ من الإيمان والمعرفة والمحبة لَيصل الإنسانَ بالكون كله، وفي الوقت نفسه ينجيه من غمّ الكثرة وآلامها، فيذيب وحدته ووحشته الداخلية بإكسير "معيّة" الحق تعالى، ويحوِّل حياتَه إلى متعة يرتشفها كأسًا بعد كأس.

فالأجيال المنطلقة إلى الغد المزودةُ بمثل هذا الزاد، تهاجر إلى كل أنحاء العالم بعشق عميق وشوق عظيم دون أن يفكروا في أية منفعة أو أجر، بل لقد احتجبوا كليًّا عن حب الشهرة والجاه.

أما في سبيل الارتقاء بالنوع البشري كله نحو الكمالات الإنسانية، فإن تلك الأجيال ستتحمل أقسى الظروف وتنهض بأثقل الأعمال ثم تمضي ولا تلتفت إلى الوراء... وهؤلاء أينما حلوا فإنهم وإن لم يتحدثوا عن الدين ولم ينبسوا ببنت شفة في التدين إلا أن ما يتجلى في تصرفاتهم من وقار وخشية سيكحل كل عين ويصبغ كل قلب بألوان أرواحهم... وستتكشف لكل من يتصلون بهم من آفاق "المعنى" الغنية الرحبة ما يغني عن ظواهر "المادة" النسبية المحدودة الأبعاد، فيبلغون مدىً يفوق الخيال في هذا العالم، وينالون سلطنة لا يحيط بها وصف. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش:

(1) إشارة إلى حادثة وقعت للرحالة والمؤرخ التركي الشهير "أَوْلِياء جلَبي" (ت ١٦٨٢م) الذي ذكر أن ما بعثه إلى رحلة بعد رحلة هي رؤيا رأى فيها النبي ﷺ، فأراد أن ينادي: "الشفاعة يا رسول الله!" طلبا للشفاعة، لكنه قال سهوًا: "السياحة يا رسول الله!" فدعا له ﷺ في الرؤيا بالسياحة، فحُبّب إليه التنقل والسياحة في البلاد بعدها. (المترجم)



النظّارة السوداء

نظّارتك السوداء،
همًّا وحزنًا أورثتْك،
عالَمًا أسودَ أرتك...
وإنْ أنت أبدلتها، سعدتَ،
وعالَمًا مشرقًا رأيت،
ودنيا بزاهي الألوان شهدتَ...

* * *

أ.د. عبد المجيد بلعابد*



على نفسك أبوابًا لا تفتح... فَغلْقُها إن استعصى عليك، سرَتْ الشرور منها إليك، وإلى الآخرين جَرَتْ، وإليهم بالأذى أسرعت... غافلاً لا تكن، وراء خيالاتك لا تمضِ... استشر العارفين بمسالك الطريق، وإلا استفززتَ الثعابين، فتنبّهتْ ومن جحورها خرجت... وبلدغاتها تسقط صريعًا، وعن الركب تتخلف، وعن القافلة تتأخر... لستَ وحدك هكذا ستكون، بل كُثْرٌ مِمَّنْ عرفتَ بالإشكال نفسه يقعون.

* * *

من الإنبات إلى النبات

آية للثبات

يتطرق هذا المقال إلى الكيمياء الحية والفيزيولوجيا النباتية عند البذرة، ويتناول دورة الحياة من التطور والنمو عند النباتات ذات الأوعية (Les Plantes Vasculaires)، وكذلك فيزيولوجيا علم وظائف الأعضاء (Physiologie des Plantes) مع الارتباط الوثيق بين جميع المراحل منذ الإنبات إلى النمو، مرورًا بالتطور ومنتهيًا بالازهرار، وكذا شروطه و مراحله الفيزيولوجية والبيولوجية الدقيقة التي يمر بها حتى الإخصاب وإنتاج الثمار بما فيها من بذور، والتي بدورها تنبت لإغلاق الدورة الحية عند النباتات ذات الأزهار (Plantes à Fleurs).

قبل التطرق إلى هذه المراحل بكل دقة، يجب في أول الأمر أن نعرّف بكلمة "بِذرة": وهي كل شيء نباتي يمكنه بعد إعطائه الشروط الخارجية الملائمة، أن يبذر أو يزرع. وقد يدخل في هذا التعريف كل من البذور (Graines)، والدرنات (Tubercules)، والفواكه الجافة (Fruits Secs)، والتي يكون الجنين بداخلها قد وصل درجة من درجات الإنضاج، والتي هي متغيرة بتغير الأجناس والأنواع.

الإنبات عند عالم وظائف الأعضاء أو العالم التجريبي، يتميز بخروج الجذرة الجنينية (Radicule) أو الجذرة المستقبلية من الأغلفة التي تحيط بالجنين، أما الباقي من ظهور الأوراق والجذع فهي من قِبل النمو والتطور مع تعقيداته وارتباطاته... ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾(ق:٩)، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(النمل:٦٠)، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(لقمان:١٠).

الإخراج، يتميز بظهور النباتات الفتية على سطح الأرض ونقول إن البذار ترتفع (Semence Lève)، هذه المرحلة التي تكون فيها النبتة الفتية ذاتية التغذية، ويكون الجنين متقدم التطور؛ هي مرحلة جد متقدمة وهي انبثاق أو بروز البذار (Emergence de la Semence)، ويسميها القرآن الكريم في جميع آياته ذات الصلة بـ"الإخراج" مما يتوافق تمامًا مع المصطلح العلمي العالمي وبجميع اللغات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:٢٧)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٢)، ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ

الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾(إبراهيم:٣٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام:٩٩)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(الأعراف:٥٧).

أنزلنا الماء بقدر حسب تفسير ابن كثير؛ الله ﷻ أكثر نعمه على عباده، وهذه النعم لا تعد ولا تحصى. في إنزاله الماء من السماء بقدر، أي حسب الحاجة وهنا يكمن أحد الإعجازات الكبرى في عملية الإنبات، لأن الله تعالى في كتابه الحكيم وفي جميع الآيات المذكورة يقرن الإنبات بالماء وفي هذه الآية بـ"قدر". ومن هنا أثبت العلم الحديث أن عملية الإنبات جد معقدة وتبدأ بالتمييه وامتصاص الماء من طرف البذرة، مما يجعلها تنتقل من حياة بطيئة جدًّا إلى حياة نشيطة، مما يجعل الجنين يخرج من سباته ويبدأ في التنفس بطريقة نشطة، ومن ثم يبدأ التطور وتتكون الأعضاء.

إن وضعية الجنين وشكله وتركيبته جدّ معقدة ومتغيرة من جنس لآخر ومن فصيلة لأخرى، مما يعني أن خروج الجنين من البذرة عبر الغلاف الذي يحيط به، هي بذاتها متغيرة حسب مميزات الجنين. وتبقى العوائق التي يعبرها الجنين والتي تتكون منها هذه القشرة، متكونة غالبًا من الأجزاء الصلبة والطبقات البارانشيمية للغلاف الزهري والوريقات.

مراحل الإنبات والأطوار المختلفة للإنبات

طور التبليل (Imbibition)؛ وهو الطور الأهم في إنبات البذور، فبدون هذا الطور لا يمكن للجنين أن ينمو ويعطي نبتة. أما كمية الماء لتبليل البذرة والضروري لنموها، مرتبط بالطبيعة الخصوصية للبذرة، وهذه التجارب على بذور الزيتون ونتائجها الميدانية، تبين مدى هذا الارتباط. فعند بذرة ذات المخزون الزيتي أو الدهني، ١٥٠٪ من ارتفاع الوزن الطري للبذرة، ناتج عن تبليلها الضروري للإنبات. هذا ويمكننا استنتاج أن كل تربة لها أو تتوفر على نسبة نهائية للماء (Limite)، ولا يمكن الإنبات إذا لم تتوفر هذه النسبة أو القدر من الماء على الأقل، من هنا يمكن أحد المفاهيم العالمية المتعلقة بالنقطة التذبل الدائمة الابتدائية (Point de Flétrissement Permanent Initial).

وقد ربطت الآية الكريمة في إعجاز معجز، بين الماء والإنبات، فالماء شرط ضروري وأساسي للإنبات، وقد تظل البذور أو الحبة في التربة سنوات عدة لا تنبت ولا تتحرك إلى أن ينزل عليها الماء، فتبدأ العملية العجيبة المعجزة؛ عملية الإنبات التي يجريها أطفالنا بوضع الحبوب والبذور فوق القطن المبلل بالماء، وهم لا يدركون أنهم يقومون بعملية من أعقد العمليات الحيوية في عالم النبات والكيمياء الحيوية... ولقد تحدى الله ﷻ بهذه العملية المشركَ به، أن يقوم بمثلها بعيدًا عن أسباب الله في خلقه من جنين حي وماء به كل شيء حي.

فإذا سقط الماء على البذرة أو الحبة، تشربت الماء بفعل قوى التشرب والقوى الأسموزية، والعلاقات المائية للنبات ذات القوانين الرياضية الدقيقة والمعقدة، والتي كان يرهقنا فهمها أثناء دراستها، والتي ما زالت ترهق طلاب الدراسات العليا عند تدريسها لهم... وضع الله ﷻ هذه القوى في غلاف الحبة أو قصرة البذرة، فإذا كان الغلاف غير منفذ للماء، لا يصل الماء إلى الجنين داخل الحبة أو البذرة فتفشل عملية الإنبات.

وقوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾(المؤمنون:٢٠)؛ فحسب بعض المفسرين منهم ابن كثير، ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ يعني: تعطي الدهن. والتعبير القرآني اللغوي: ﴿تَنْبُتُ﴾ هي العملية و﴿بِالدُّهْنِ﴾ هي الوسيلة التي بواسطتها تحصل هذه العملية. هذه التفاسير هي صائبة وصحيحة، لأنها تفاسير علمية حسب المعلومات العلمية المتاحة في عصر هؤلاء المفسرين. في سورة "المؤمنون" يقول الله ﷻ: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾؛ أي بالمخزون الدهني عند الزيتون وهو من المزيوتات. وهذه الحقيقة العلمية لو قالها أشهر العلماء قبل عام ١٩٦٥م، لاتُّهم بالجهل والفشل، لأن الغليوكسيزوم (Glyoxysome) بداخل الخلية، لم يكن اكتشف بعد في ذلك الزمن، وهو المنطقة التي تتدهور فيها هذه الدهنيات لإنبات الزيتون، وهي حقيقة علمية منذ عام ١٩٦٥م فقط.

الإنبات عند المزيوتات

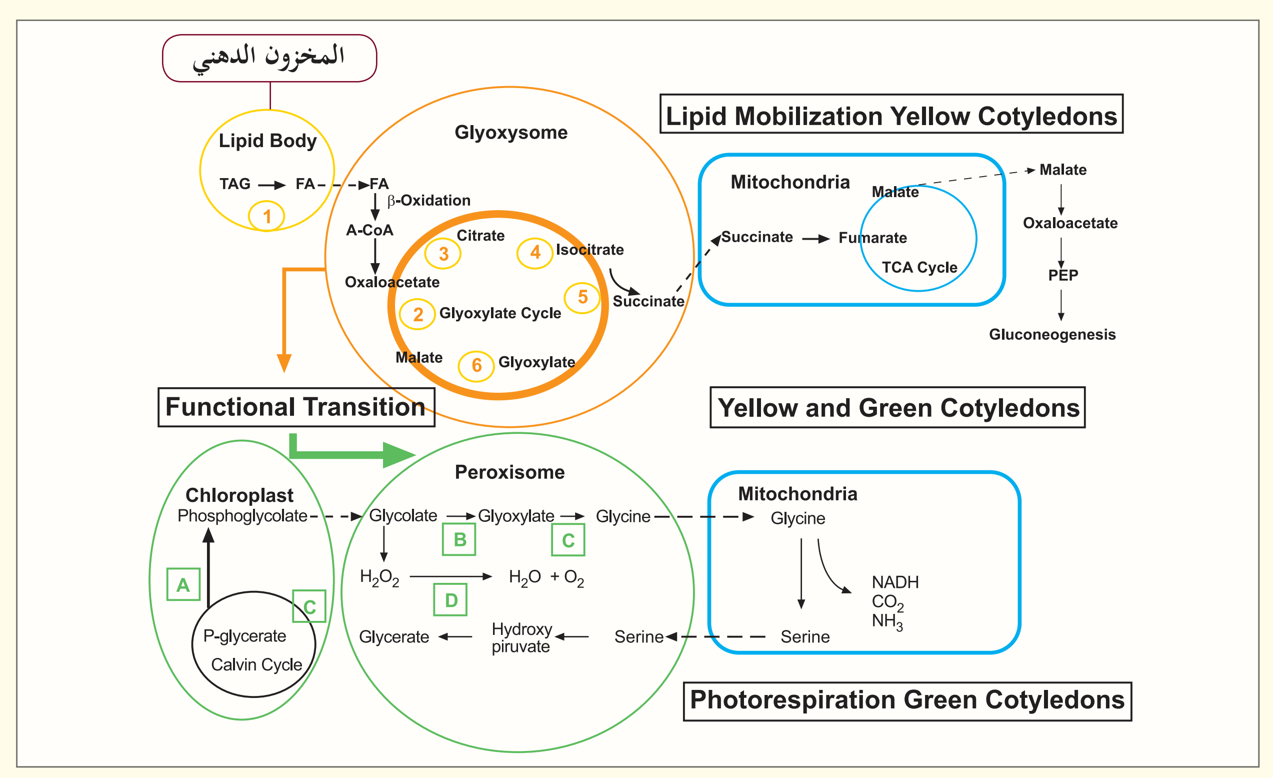
هذه البذور عند المزيوتات تحتوي على كمية من المخزون الدهني قبل الإنبات يبلغ ٢٥٠ مغ، أي مما يساوي ٧٠٪ من الوزن الطري.

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه النباتات ذات

المخزون الدهني، لها خاصياتها الفيزيولوجية والأنزيمية لاستعمال المركبات الدهنية فور دخول الجنين طور الإنبات والنمو عكس الحبوب، مثلاً هذه الأصناف، لها خاصيتها في استعمال المركبات السكرية والبروتينية في نمو الجنين وتطوره، وعكس ذلك الخضروات التي تستعمل البروتينات لإنبات البذرة وبالضبط الجنين.

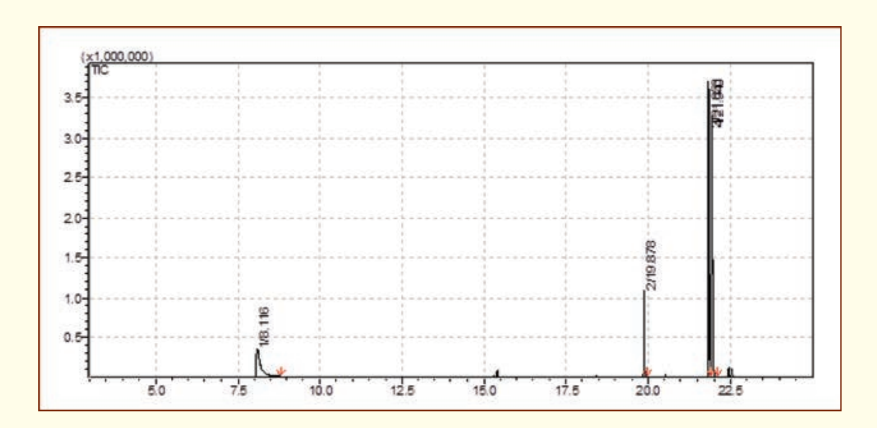
المراحل

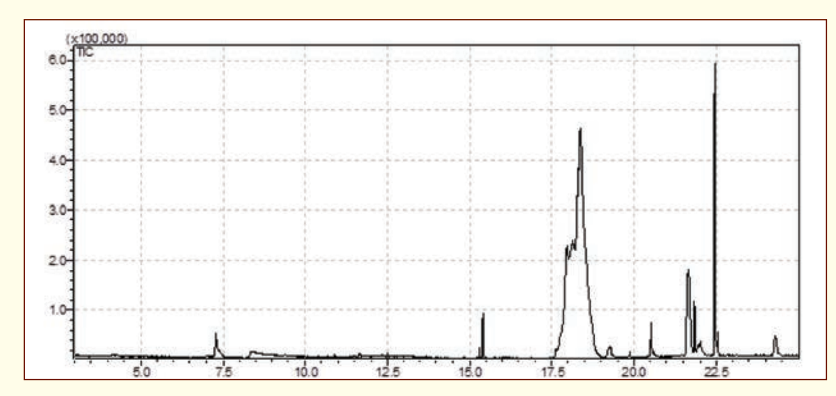
طور إنباتي	بداية	المدة	الأعراض
راحة إنباتية	دجنبر وشتنبر	١-٣ أشهر	نشاط إنباتي متوقف أو بطيء
تحريض زهري	فبراير	.	الفواكه تتطور وتنمو على مشخر نمو قبل السنة
استئناف الإنبات	آخر فبراير	٢٠-٢٥ أيام	إنبات جديد بألوان جديدة
Apparition de boutons floraux ظهور البراعم الزهرية	وسط مارس	١٨-٢٣ أيام	ازهرار بألوان خضراء وبيضاء عند الإنضاج
Floraison الإزهار	بداية مايو إلى ١٠ يونيو	٧ أيام	Fleurs ouvertes et bien apparentes, pollinisation et fécondation
Fructification	نهاية ماي و يونيو	.	Chute des pétales, hécatombe précoce des fleurs et des fruits
Développement des fruits تطور الفواكه	النصف الأخير من يونيو	٣-٤ أسابيع	Fruits petits mais bien apparents
Durcissement du noyau تصلب النواة	يوليو	٧-٢٥ أيام	Fin de la formation des fruits devenant résistants à la coupe et à la section.
Croissance des fruits نمو الفواكه	أغسطس	١,٥-٢ شهور	Augmentation considérable de la taille des fruits et apparition des lenticelles.
Début de maturation بداية الإنضاج	نصف أكتوبر إلى نصف نوفمبر	.	Au moins la moitié de la surface du fruit vire du vert au rouge violacé
Maturation complète إنضاج	نصف أكتوبر إلى نصف ديسمبر	.	Fruits avec une coloration uniforme violette à noire



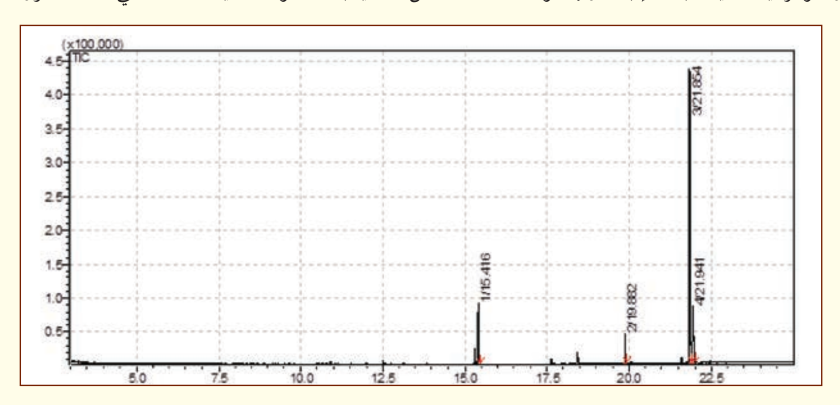
هـذه الحقائـق العلميـة لم تكن معروفة إلا في القرن الماضي، وعملية الإنبـات المعقدة لم تكن معروفة فيزيولوجيًّا، وحتى المواد المخزونة في البذرة والتي يستعملها الجنين في طور الإنبات لم تكن معروفة ومدروسة.

هذه الحقائق العلمية التي يتفرد بها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا، تؤكد نبوة محمد ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم:٣-٤).





شكل الكروماتوغرافيا لدهنيات بعد الإنبات ولها مواصفات الأحماض الدهنية بعد تدهور الدهنيات العامة التي كانت مخزونة في البذرة.



العملية تبدأ بأكسـدة المواد العضوية المخزنة في داخل البذرة التي سـوف تسـتعمل من طرف الجنين. في هذا الطور يبدأ الجنين في الدخول في الإنبات بطريقة نشطة، ويبدأ في التنفس التصاعدي في الأيام الأولى للإنبات والنمو. واستعمال الدهون في الإنبات، يعطي الجنين أحماضًا دهنيةً سـهلة الاسـتعمال تدخل في طور الاسـتقلاب (Phase du Métabolisme)، وهذا الإنبات هو كلي بالدهن وليس بمادة أخرى، وهذا من الإعجاز القرآني والعلمي في الآية: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾. ■

(*) جامعة محمد الأول، كلية العلوم - وجدة / المغرب.

أ.د. بركات محمد مراد*



الماء والحياة
في حضارة الإسلام

قد لا نعجب للاهتمام البالغ الذي تستأثر به قضية تآكل الأوزون في طبقات الجو العليا وتزايد درجة الحرارة في المناخ العالمي، أو ظاهرة "البيت الزجاجي" المترتبة على تراكم غاز ثاني أكسيد الكربون في جو الأرض. فهاتان هما القضيتان الكبريان بين قضايا البيئة في الوقت الحاضر، ولكننا نعجب أشد العجب لعدم تركيز الاهتمام على قضية أخرى ستصبح عما قريب قضية البيئة الأولى،

أعني أزمة الماء، وهو ما يؤكده كثير من العلماء والخبراء الآن؛ مثل "أسيت بواس" رئيس اتحاد موارد المياه العالمي في ولاية "إلينوى" الأمريكية بالقول: "الماء ثروة محدودة، وسكان الأرض في تكاثر غير محدود تقريبًا، ولعل اليوم الذي تتقلص فيه تلك الثروة وتشح إلى درجة النضوب، سيكون في أواسط القرن الواحد والعشرين إن لم نقل في أوائله".

ويقول "إلياس سلامة": "ستتضاعف حاجتنا إلى الماء ضعفين سنة ٢٠٢٠، وعندها سيصبح الماء لا النفط، هو المورد الأول الذي يتحكم بمصائر العباد في شتى البلاد وبمستقبل منطقة الشرق الأوسط". وقد تناقلت وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام المحلية والدولية، أخبار الجفاف في شرق إفريقيا الذي استفحل في الآونة الأخيرة بعد أن حرمت من الأمطار منذ عدة سنوات، مما نجم عنه نفوق الحيوانات وهي المصدر الرئيسي لغذاء الإنسان، ثم موت الآلاف من البشر حيث لم يجدوا ما يقيم أودهم، وهاجر العديد من الآلاف إلى المناطق المجاورة بحثًا عن الماء مصدر الحياة. وما زالت المشاكل المترتبة على نقصه تتفاقم، مما يجعلنا ندرك مدى أهميته بالنسبة للحياة عامة وحياة الإنسان على وجه الخصوص. ولذلك يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣٠).

جعلت الشريعة الإسلامية حق الانتفاع بالماء، مكفولاً للجميع بلا احتكار ولا إفساد ولا تعطيل، فهو حق شائع بين جميع البشر. فالماء ملكية عامة، والملكية العامة تستدعي المحافظة عليها، وولي أمر المسلمين مسؤول عن تنظيم استفادة جميع المسلمين من هذه الملكية.

الماء مصدر الحياة

وقال المفسرون: إن ما تعنيه هذه الآية الكريمة، هو أن الماء سبب حياة كل شيء حي في الأرض. وقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، وهو وحدة البناء في كل كائن حي نباتًا كان أم حيوانًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٩٩). والماء هو بيئة كثير من المخلوقات والكائنات الحية: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾(النحل:١٤)، أي جعل مياهه صالحة لحياة الأحياء البحرية التي يتغذى عليها الإنسان، ويقول ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾(المائدة: ٩٦)، والمقصود بالبحر في هذه الآية: كل ماء يوجد فيه صيد بحري وإن كان نهرًا أو غديرًا. وقد وردت كلمة الماء في القرآن ثلاثًا وستين مرة، وورد معناها في مواضع شتى: الغيث والمطر والبحار والأنهار وغير ذلك لأهميته القصوى.

وغالب ورودها بمعنى "النعمة"، وكونه ضرورة للحياة والأحياء والتي لا تقوم الحياة إلا به، تخضر الأرض بعد أن كانت جرزًا، وتحيا بعد همود وخشوع: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥)، وهو قوام الحياة لأنه يخرج مكونات الأرض مما يتغذى عليه الحيوان والإنسان لتحقيق خلافة البشر على الأرض كما أرادها الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:١٠-١١)، وهو قوام الحياة لأنه أصل كل دابة: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾(النور:٤٥) وهي كلها مسخرة لخدمة الإنسان وغذائه وكسائه وترحاله.

ولما كان للماء هذه الأهمية القصوى، فقد نبه الله ﷻ كثيرًا على معرفة هذه النعمة وغيرها، وأمر بشكر صاحبها فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾(الواقعة:٦٨-٧٠).

كما يتحدى القادرُ عبادَه البشرَ حتى لا يغتروا بعلمهم فيضلوا السبيل فيقول ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾(الملك:٣٠). وإذا استطاع الإنسان أن يتحكم في وقت إنزال المطر ومكانه، فلينظر أولاً من أين جاء السحاب الذي يفجره، فهو لم ينشئه من عدم وإنما أنشأه

الله ﷻ: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾(الرعد:١٢). ولما كانت للماء هذه المنزلة الكبرى، كان من الطبيعي أن تتوقف عجلة الحياة عن الدوران إذا نضب الماء أو ندر، ولهذا تضافرت نصوص الشريعة الإسلامية في الحث على المحافظة على موارد المياه وعلى حماية الماء من كل العوامل التي تسبب فساده وتلوثه.

النهي عن الإسراف في الماء

كان النبي ﷺ الأسوة الحسنى والقدوة المثلى في مجال المحافظة على الماء من الضياع هدرًا. فقد أخرج مسلم من حديث أنس ﷺ: كان النبي ﷺ يتوضأ بالمدِّ، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد.

والرسول ﷺ أول من دعا الناس إلى عدم الإسراف في استهلاك الماء فقال: "كلوا واشربوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة" (رواه ابن ماجة)، بل إن الرسول ﷺ نهى عن الإسراف في استخدام الماء في أغراض الوضوء أو الاغتسال، فقد روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ، فقال ﷺ: "ما هذا الإسراف؟" فقال ﷺ: أفي الوضوء إسراف؟ فقال ﷺ: "نعم، وإن كنت على نهر جار" (رواه ابن ماجة)، ولذلك كان يقال: من قلة فقه الرجل ولوعه بالماء.

وقد طبق الرسول ﷺ ما نهى عنه على نفسه وعلى أهل بيته؛ فعن عبد الله بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ توضأ بثلثي مد. وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تغتسل هي والنبي ﷺ من إناء واحد يسع ثلاثة أمداد أو قريبًا من ذلك.

وروي أن قومًا سألوا جابرًا عن الغسل فقال: يكفيك صاع، فقال رجل: ما يكفي، فقال جابر: كان يكفي من هو أوفى شعرًا منك وخير منك؛ يعني النبي ﷺ. (متفق عليه)

وتوضح لنا كتب الفقه اهتمام المسلمين القدامى بعدم الإسراف في استخدام الماء في الوضوء والاغتسال، وإذا كان الحرص على عدم الإسراف في استعمال الماء في الوضوء والاغتسال شديدًا، فإنه فيما عدا ذلك يجب أن يكون أشد. وقد انتهج الخلفاء الراشدون نهج رسول الله ﷺ وساروا على منواله، فاهتموا بمصادر المياه وعملوا على تخزينها والمحافظة عليها لحين الحاجة إليها، كما اعتنوا بترشيد استخدام الماء. ولذلك عندما فتح المسلمون الشام والعراق ومصر، اتجهوا إلى تحسين أحوال هذه البلاد وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة واستغلال المياه، فبنوا السدود وأقاموا الجسور وشقوا القنوات والترع. وتذكر لنا كتب التاريخ الإسلامي أن عمرو بن العاص لمّا فتح مصر، وفي أثناء ولايته عليها، استخدم نحو مئة ألف عامل في إصلاح طرق الري في مصر صيفًا وشتاءً.

ولقد استمر اهتمام ولاة الأمور في دولة الإسلام،



السبيل السلطاني الذي أقامه السلطان العثماني أحمد الثالث في قصر طوب قابي بإسطنبول.

بالمحافظة على توفير الماء اللازم لكل قطعة من الأرض تصلح للزراعة، وقد بلغت الدولة العباسية في ذلك شأنًا عظيمًا. ويشير كل من "اليعقوبي" في كتاب "البلدان" و"ياقوت الحموي" في "معجم البلدان"، إلى أن الخلفاء العباسيين كانوا يهتمون شخصيًّا بالعمل على تيسير الري حتى يتمكن السكان من زراعة الأرض دون جهد ومشقة، ويتمثل ذلك في شق الترع وإقامة المصارف وتشييد القناطر.

ويذكر هذان المؤرخان أن الخليفة "المنصور" وضع تخطيطًا علميًّا لاستغلال مياه نهر دجلة؛ بأن أمر بشق عدد من الجداول والترع تستمد مياها منه لتيسير ري الأراضي القريبة منه، مثل قناة "جيل"، كما أحسن استغلال نهر الفرات -على الرغم من قلة مياهه- بإقامة قناة تأخذ من "كرخاريا" أحد روافد الفرات، تجري في عقود وثيقة من أسفلها، محكمة بالآجر من أعلاها، وتنفذ في أكثر شوارع بغداد صيفًا وشتاءً، وصممت بحيث لا ينقطع ماؤها في أي وقت من الأوقات. وفي عهد الخلفاء العباسيين رشحت المستنقعات بنظام دقيق.

وتحدث "ابن حوقل" في كتابه "صورة الأرض" عن الجهود التي بذلت لوقف زحف الكثبان الرملية على قنوات الماء في أفغانستان.. فقد أشار إلى أن تلك البلاد سبخة مفككة تغطيها الرمال والكثبان الهلالية، ولذلك عمل السكان الحيل حتى حولوا مجرى الرياح بسدود أقاموها لهذا الغرض.

وقد وعى علماء المسلمين الأخطار التي يمكن أن تترتب على زيادة مستوى مياه الري في الأراضي الزراعية، فضلاً عما يعنيه ذلك من ضياع هذه المياه هدرًا. وقد قام بعضهم بتصميم تقنيات هندسية للتحكم في منسوب مياه الري. وفي الكتاب المسمى "حيل بني موسى" نجد إشارة إلى اختراع ميكانيكي طريف لـ"أحمد بن موسى" -أحد أعلام المسلمين في علم الحيل (الميكانيكا)- ويتمثل هذا الاختراع في آلة تثبت في الحقول وتصدر أصواتًا خاصة كلما ارتفع منسوب الماء في الحقول، لئلا تفقد مياه الري دون فائدة. ويبدو أن هذا الاختراع قد طبق في بغداد إبان القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

لما كانت للماء المنزلة الكبرى، كان من الطبيعي أن تتوقف عجلة الحياة عن الدوران إذا نضب الماء أو ندر، ولهذا تضافرت نصوص الشريعة الإسلامية في الحث على المحافظة على موارد المياه وعلى حماية الماء من كل العوامل التي تسبب فساده وتلوثه.

المياه لجميع البشر: مبدأ إسلامي

وكذلك اهتم المسلمون بحل المشكلات التي تنجم عن استخدام المياه في الري، كما اهتم العلماء والفقهاء بدراسة كل القضايا التي تتعلق بالنزاع الذي يحدث بين المنتفعين بالمياه.. وقد تناول الأئمة الأربعة هذه القضايا في كتبهم ودراساتهم ورسائلهم، ولم يتركوا من هذه القضايا شيئًا دون أن يتناولوه بالفحص والدرس.

من ذلك ما رواه الإمام مالك في كتابه الشهير "الموطأ" عن الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ".

وما رواه مالك من أن رسول الله ﷺ قال: "لا يمنع فضل بئر"، والمعنى أن يكون حول البئر كلأ ليس عنده ماء غيره، ولا يمكن لأصحاب المواشي رعيه إلا إذا تمكنوا من سقي بهائمهم من تلك البئر لكيلا يتضرروا بالعطش، فيلتزم منعهم الماء منعهم الرعي.

كما جعلت الشريعة الإسلامية حق الانتفاع بالماء، مكفولاً للجميع بلا احتكار ولا إفساد ولا تعطيل، فهو حق شائع بين جميع البشر. قال رسول الله ﷺ: "الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار" (رواه ابن ماجة). وهذا يعني أن مصادر الماء لا يجوز لأحد أن يحتكرها لنفسه أو يمنعها عن الآخرين، فهي ملكية عامة للجميع. والملكية العامة تستدعي المحافظة عليها، وولي أمر المسلمين مسؤول عن ذلك ومسؤول عن تنظيم استفادة جميع المسلمين من هذه الملكية. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أديب إبراهيم الدباغ*

أشواق الروح

1

الأمة التي تصبو أن ترتقي إلى قمّة العظمة النفسية والعبقرية الفكرية، عليها أن تراعي أشواقها الروحية، وتعمل على تعهدها وإنضاجها واتخاذها منطلقًا إلى حيث تتشعب بها الحياة ويأخذها التاريخ.

وإذا كان الطغيان والاستبداد يحول بين الأمة ومقدّراتها العبقرية، فإن خنق أشواق الروح وعدم السماح لها بالانطلاق في مجاريها الحقيقية من حياة الأمة، أفدح خطبًا وأشد شرًّا.

فقـدر الأمـة يتواءم إلى حـدٍّ ما، مع قدراتهـا الذاتية، وهو -أي القـدر- يكـون في غالب الأحيـان جاريًا مجرى قدراتها النفسـية والفكريـة والعلميـة، لأن القدر في واحـد من معانيه -كما يقول سـعيد النورسـي- يسـاوي العلم بالشـيء قبل أن يكون، وبعد أن يكون، وكيف بعد ذلك يكون.

ولا زالـت هـذه الأمة تخرج من "تيه" لتدخـل في "أتياه"، وتخرج من إشكال لتقع في إشكالات، لأنها لم تكتنه سريرتها بالشـكل المطلوب، ولم تسبر أغوار تاريخها لتعرف من هي، ومن تكون، وما موقعها من العالم ومن التاريخ.

فلهـذه الأغوار أعمـاق في حياة الأمة أبعـد أمدًا، وأهدى رشدًا من أعماق الأرض وأعماق الفضاء.

فمشـكلات هـذه الأمة الكبـرى ناجمة عـن عجزها، عن إشـباع جوعة روحها قبل جوعة بطنها، وإطفاء عطش فؤادها قبل إطفاء عطش جوارحها.

فأيـن هي قواهـا الروحية والنفسـية التي تأخـذ بيدها إلى الصدارة، ليس من تاريخ العالم فحسب، بل إلى الصدارة من تاريخ الكون، لكونية أفكارها وسعة أشواقها. فالقوى الروحية والنفسـية لهـا من الكـون المـكان الأرفع والمحل الأسـنى، وعلى هذه الأمة أن تعي بأن حياتها -شـاءت أم أبت- شـذرة مـن الحيـاة الأبدية المطلقـة، فما لم تنزل حياتهـا في منزلتها الحقيقية من الحياة الأبدية، فستظل محدودة الحياة، محدودة الآفـاق، محدودة الأفكار، محدودة التاريخ، مجدبة الوجدان، مقفرة الروح، ضعيفة التفكير.

إننـا لا زلنـا حتى هـذا اليوم، لا نملك من قـوة التفكير ما يجعلنـا قادرين علـى فهم ما يبتكره الآخرون الفهم الصحيح، فضلاً عن أن نكون نحن السبّاقين إلى الإبداع والابتكار.

فالفكـر المعرفـي مهما بلغ من القـوة والنضج، يظل -من غير عقيدة تسـنده- عاجزًا عن معالجة قلق النفس وجائحات الروح؛ فالعقيدة السـليمة إذا مشـت مشـى الفكـر في ركابها، وسدّد خطاها، وأنار طريقها، وأضاء معالمها.

فأشـواق الـروح ليسـت لأمـة دون أمـة ولا لجماعة دون جماعة، بل هي قسـط مشـترك بين الآدميـين جميعًا.. فجناح الفكـر يخفـق عاليًـا إذا نشـرت الـروح أجنحتهـا، وطـارت بأشواقها إلى حيث ينبض قلب العالم ويخفق وجدان الكون. فالعالـم من غير الإنسان ومن غير أشواقه واستشرافاته العلوية والقدسية يبقى قفرًا يبابًا، وقلبًا صامتًا، ولسانًا أبكم.

إننا سـنتجنب مسـالك التيه، ولا تلتاث علينا السبل، ولن يسـتولي علينا الرعب إذا ما جبنا رحاب قلوبنا، وتسـللنا إلى حنايا ذواتنا، لأنها متلألئة بالضياء، ولأن ألف سـماء وسـماء تخفق في أجواء هذا القلب الرحيب الطافح بأشواقه والسابح بأنواره وأفكاره التي تفوق العقل بحدة ذكائها وسرعة إدراكها.

إن أيـام هـذا القلب سـماوية كلهـا، نديّة بأنـداء الخلود، إنها ينبوع من القوة يرفد العقل المبعوث للرشـد والإدراك... فأية أقفال فكرية يمكن أن تصمد أمام هذا الشـعاع الروحاني المذيب للحديد والفولاذ؟!

كمـا أنهـا تعـزز قوى الإحسـاس، وتفتـح منافـذ الخيال، وتؤجـج ثورات فـي الرؤوس، وتثير تسـاؤلات فـي الأذهان والعقول، وتحرك آيات البرهان، ودلائل الإيقان... وهناك في الأعماق -في الأعماق فقط- نستطيع أن نمسك بكل أضوائنا الشاردة، وأفكارنا المشتتة، ومشاعرنا الهاربة.

فأشواق الروح هذه، ينبغي أن تجد في كل أمة من يغذوها بزيت التوهج، ويؤجج اشـتعالها كلما شـارفت على الانطفاء والخمـود. والذيـن يقومـون بهـذه الخدمة الجليلـة، إنما هم "رجال القلب" كما يسمّيهم الأستاذ فتح الله كولن، المنتشرون بمدارسهم في بقاع كثيرة من العالم، من أجل هذا العمل البطولي الذي لا يقوى عليه إلا رجال من ذوي العزم والإرادة والتصميم.

فصاحـب الـروح العظيـم لا يضلـل العقـول ولا العقول تضله، فإذا ما غطّت هذه الأشـواق مساحات النفس، تحولت إلى عاطفـة عامة تنصبغ الأفكار والأذواق والآداب بصبغتها، وتصبـح طبيعةً أخـرى أقوى من كل طبيعة، وأشـد تمكنًا في الإنسان من غرائزه، وإذا ما تفتحت عظمة الأمة على أشواقها سرت فكرة التجديد فيها، وتبقى الأمة جديدة أبدًا، حارةً أبدًا، مملـوءةً بالحياة أبـدًا، مفعمة بالقوة والخصـب والدراية أبدًا، وتعيـش لتفكر، وتفكر لتعيش... وصارت مرآة عظيمة صقيلة صافية تقبس الشعاع مهما اشتد ظلام الليل وتكاثف سواده. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

أ.د. عماد الدين خليل*

أطاف الله عليك تتنزل، ورأفته بك تحيط، وَوُدُّه لك شامل... ليتك منه تعالى تتعلم، ومن معاملته لك تتخذ مقْياسًا... فتعامل الناس كمعاملة الله لك... إن فعلت ذلك كنتَ من الله قريبًا، وبالناس لصيقًا... وبمعية الحق، تخوض غمار الخلق، فتنجو من وحشتين؛ وحشة وجفْوة للخلق، ووحشة وجفوة للخالق..

* * *

مفارقة الإنسان والتقدم رؤية مقارنة (١)

من زوايا ثلاث، يعالج كل من الكاتب الروماني "كونستانتان جيوروجيو" في رواية "الساعة الخامسة والعشرون"، ورجل القانون الفرنسي "مارسيل بوازار" في "إنسانية الإسلام"، والنورسي في "رسائل النور"، إشكالية المفارقة المحزنة بين الإنسان والتقدم. ولطالما تساءل المتسائلون: أما كان يتحتم على التقدم العلمي والمعرفي أن يكون في خدمة الإنسان كائنًا متفردًا أنيطت به مسؤولية كبرى، وأن يسير جنبًا إلى جنب مع مطالب هذا الكائن المتميز المسؤول، ويستجيب لأشواقه وحاجاته كافة... بمعنى ألاّ يقتصر على تلبية مطالب الحس، بل أن يغطي كل ما يهمّ الإنسان في هذا العالم من أجل أن يحيا حياة متوازنة، متوحدة، آمنة وسعيدة؟ ما الذي حدث لكي يمضي التقدم أبعد من هذا، فيلحق بالإنسان والحياة البشرية المزيد من المنغصات والمتاعب، ويجرّدها شيئًا فشيئًا من عمقها الحقيقي، ويضع بينها وبين أهدافها المشروعة الحواجز والأسلاك الشائكة؟

"جيوروجيو" و"بوازار" و"النورسي" يقفون طويلاً عند هذه الظاهرة غير المبرّرة، فيسلطون الأضواء عليها،

ويقترحون سبلاً للخروج من الورطة. أحدهم برؤية أديب، والآخر برؤية قانوني دولي، والثالث برؤية مفكر موسوعي يملك رؤية طائر (View of Bird) يضع العالم كله تحت المنظور. ولسوف نجد كيف يلتقي هؤلاء الثلاثة في نقاط الارتكاز الأساسية للمفارقة، وفي العديد من الحلول والمرئيات. إنها أزمة تضيّق الخناق على الإنسان، بينما كان المفروض أن يحدث العكس، فلماذا؟ ومن ثم غدت قضية جل فلاسفة العالم المعاصرين وحكمائه ومفكريه وكتابه وأدبائه. ولن يتسع المجال في بحث محدد كهذا، أن يلاحق معطيات هؤلاء جميعًا، ولذا سيتم الاكتفاء بثلاثة فحسب وهذا يكفي، لأن ما قدّموه يضع يده على الجرح، ويقدم جانبًا من أسباب العلاج.

> الإسلام يجعل الحرص على التقدم واستغلال قوى الطبيعة واحتضان المكتسبات العلمية، واجبًا محتمًا على المسلمين دولاً وجماعات ومؤسسات وأفرادًا، ولكنه لا يسمح أبدًا بأن يستعلي "شيء" في الأرض على الإنسان الذي كرمه خالقه وحمله في البر والبحر، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

كونستانتان جيوروجيو

في رواية الكاتب الروماني "كونستانتان جيوروجيو": "الساعة الخامسة والعشرون"، تبدو أزمة الحضارة الغربية واضحة للعيان، إن مآسيها تعرض علينا كما لو كنا نشهد مسرحية حاضرة: الإنسان الذي سلبت حريته وأدخل في دوّامة من آلية قاسية أحالته إلى "رقيق" وأفقدته حريته وإرادته الذاتية، "المواطنون" الذين ملأوا الشوارع ودور الحكومة والمؤسسات في جماعية سحقت كل ما هو فردي، وتشابهية دمرت كل إمكانية للتنوع والإبداع، وتعميمية محقت كل اتجاه شخصي، ومادية ردمت كل منابع الحب والإيمان في وجدان الإنسان. النظم الصارمة التي أوجدت جحرًا خانقًا بات لا يصلح للتنفس... الصراع من أجل تأكيد أكثر للآلية، واستعباد أشد للإنسان، وتحطيم أعنف للقيم، وتجفيف لا يرحم لمنابع الوجدان... كل منكم سيصرخ بعد مشاهدة منظرين أو ثلاثة من مسرحية الحضارة المعاصرة هذه: "الآن لست أريد متابعة النظر، لأنني تعبت ولأن المشهد طال أكثر من المعتاد، إنني -إذا استمريت على المشاهدة- فسوف لا أرى إلا الأنقاض. سأرى مدنًا متهدمة، ورجالاً متهدمين، وبلدانًا وكنائس وآمالاً كلها متهدمة محطمة".

صحيح أن "جيوروجيو" يعالج في روايته هذه، مأساة الإنسان الغربي في النظم الشمولية، أممية كانت أم قومية شوفينية، إلا أنه -وكما سنرى- لا يغفل عن إدانة النظم الرأسمالية بما تنطوي عليه من آلية وذرائعية ساقت الإنسان هي الأخرى إلى التعاسة والعذاب.

إن جانبًا من الأدب الغربي اليوم -وبخاصة الرواية والمسرحية- يشكل أهمية كبرى في أية دراسة جادة للحضارة الغربية المعاصرة، لأنه يعكس -بصدق فني مدهش- الأزمة التي تعانيها هذه الحضارة في جناحيها الجماعي والفردي، والضغوط القاسية التي تسلطها على الإنسان فتمزقه وتسحقه. إن ردود الفعل التي يجابه بها الإنسان الغربي المعاصر حضارته المتأزمة هذه، تبدو واضحة للعيان عبر عدد كبير من الروايات والمسرحيات التي كتبها أدباء وفنانون كبار أدركوا جوانب عميقة من الأزمة، وكلهم بلغ درجاتها الدنيا، وجاس في سراديبها وكهوفها، وما أن وصل بعدها الأخير حتى غطاه الظل وأغرقه الظلام. فهل ننتظر نحن منه أن يجد لنا مصدر الضوء، ويدلنا على طريق الخروج؟ إن ما تقدمه لنا هذه الآداب والفنون يقتصر على الخطوة الأولى: تحديد ملامح المأساة، أما الخطوة التالية التي ترسم لنا طريق الخلاص، فما ينتظر من هؤلاء أن يتقدموا إليها، لأنهم ليسوا "على شريعة من الأمر"، وهي خطوة نلقي مسؤوليتها العظمى على أعناق أولئك الذين حملوا أمانة "الكتاب".

لماذا "الساعة الخامسة والعشرون"؟ "جيوروجيو" يجيبنا على هذا السؤال: "إن الجو بات لا يصلح للتنفس... إن الجو بات خانقًا... الجو الذي يعيش فيه المجتمع الحاضر... إن الكائن البشري لن يستطيع احتماله... إن البيروقراطية والجيش والحكومة والتنظيم الحكومي والإدارة، كل هذه الأشياء تساهم في تسميم الجو ليخنق الإنسان... إن المجتمع الحاضر يستخدم الآلات والرقيق العنصري... لقد خلق من أجلها... ولكن الإنسان محكوم عليه بالاختناق غير أن بني

الإنسـان لا يشعرون بذلك... لقد وضعت في روايتي الطريقة التـي يموت بهـا رجال هذه الأرض الذيـن يحيون في عذاب مريع وقلق قاتل، تخنقهم الأجواء غير الصالحة للحياة".

إن التقدم التقني الذي أحرزته الحضارة الغربية، لم توجهه قيـم الدين يومًا، بل إنه انطلق أساسًـا وأخـذ طريقه يوم أعلن العلـم انتصاره علـى الدين -أو هكذا يتوهمـون- فلا تعجب -إذن- إذا ما تضاءل الإنسـان يومًا بعد يوم إزاء هذا التضخم الآلي، لأنه فقد الإيمان بكرامته، وغض بصره عن التطلع إلى قيم علوية وسجد للآلة. ولأوّل مرة يقدم كاتب غربي تحليلاً رائعًـا يتميـز بالجدة والحيوية لهذه العلاقـة غير المتكافئة بين الإنسان والآلة.

الحضارة الآلية

إن سـيطرة الآليـة علـى الحضارة الغربيـة قوّض قيمًـا قديمة وأوجـد أخـرى، سـحق مكتسـبات قـرون طويلـة مـن القيم الخلقية والاجتماعية والنفسـية والروحيـة، وأحلّ محلها قيمًا منتزعـة مـن روح الآلة الصمّـاء وعلاقاتها الرتيبـة وتجريدها الميّـت. وهـا نحن نجد هـذا التقابل المحزن بيـن نوعين من القيم في الحضارة المعاصرة: الجماعية ضد الفردية، التشـابه ضـد التنـوع، التعميم ضد التخصيـص، المادية ضد الروحية، الرمزيـة ضـد الشـخصانية، القدر ضـد الحريـة، التجريد ضد الحياة، التكرار ضد التطوّر الخلاّق، الموضوعية ضد الذاتية، والظاهر ضد الباطن... "إن ظهور العصر التقني، قد حطم كل ما ربحناه وأقمناه خلال قرون من الحضارة، لقد أدخل العصر التقني من جديد احتقار الكائن الإنسـاني، لقد تحول الإنسان اليوم إلى مقياسه الاجتماعي فحسب".

والفرديـة والتنـوع همـا جـزء أصيـل من قـدر الله وخطته المعجزة لتكوين الحياة وتحريكها وتطويرها الأبدي الخلاّق، لذا فإن ما تشـهده الحقبة الحاضرة من التاريخ، يمثل انحرافًا كبيـرًا عن نواميس الكون والبشـرية. "إن البشـر بهذا الشـكل يخطئ خطيئات خطيرة ويعتبر مذنبًا حيال الله؛ إننا نعمل بكل قوانـا ضـد خيرنـا الخاص وضد الله سـبحانه علـى الأخص، وذلك هو آخر منحدر بلغت إليه الكتلة البشرية. وفي يوم من الأيام سـوف ينقرض هذا المجتمـع كما انقرضت مجتمعات كثيرة خلال حقبات التاريخ". إن اعتماد الغرب على الأساليب الرياضية والمنطقيـة والإحصائية في توجيه الحياة وتطويرها، لن يحقق إلا كمالاً ظاهريًّا، ولكن هذا سـيكون على حسـاب الحيـاة الباطنيـة، الحيـاة في مجاريهـا الحقيقيـة العميقة التي تصنـع الحضارة وتوجّه التاريخ وتسـير بالبشـرية إلى الأمام. إن ردم هـذه المنابـع الباطنية سـوف يقضي على سـرّ التطور الذي وهبه الله للإنسـان، ومن ثم فإن هذا الكمال الاجتماعي السطحي سوف يمتد أفقيًّا فحسب، ويفقد -بالتدريج- قدرته على الامتداد العمودي صوب البعد الثالث في الإنسان. وهذا يعني أنه تطوّر مأسور بقيود الزمن، وأن المستقبل سوف يشهد تحطمًـا مريعًا لمجتمع يركن إلـى القيم الجماعية الظاهرة في تماسـكه... "إن حياة الإنسـان لن يكون لها وجود في اللحظة التي تنقلب فيها إلى الجماعية والآلية، وإلى قوانين تتعلق بالآلة. إن هذه القوانين لا يمكن مطلقًا أن تعطي لونًا لحياة البشرية".

الحضارة المعاصرة

والحضـارة المعاصرة بعد هذا، لا تمتلـك عناصر البقاء، إنها فضلاً عن ماديتها الطاغية، وآليتها الرتيبة، وقياسـها التجريدي الميّـت، وفضـلاً عـن إتاحتها المجال لظهور أبشـع وأقسـى طبقتيـن في التاريخ: الرقيق التقني والمواطنون، سـيطرتا على مقـدرات الإنسـان وعرضتـا وجـوده للاختنـاق، وفضلاً عن اتفاق الغرب والشرق على تحطيم قيم الإنسان ومثله، وسحق وجدانـه وردم منابـع عاطفته ووحيه وإلهامـه، فضلاً عن هذا وذاك، فهي حضارة التكاثر الذي يحيل الحياة إلى لهاث دائم وتفتيـش لا نهائي عن الذهب... "سـوف تنتزعون الحياة غدًا بحثًـا عـن الذهب تحتها، ثـم تنتزعون العضـلات عن العظام بحثًـا عـن الذهـب، وبعدئذ تحطمـون العظام لتنظـروا ما إذا لـم يكن فيها شـيء من الذهب، وأخيـرًا تضغطون على أدمغة الرجـال، وتفتشـون فـي أمعائهـم، وتمزقونهم إربًـا بحثًا عن الذهب، سـتحطمون القلوب وتجزؤونها بحثًا عن الذهب... الذهـب الذهب! إننـا اليوم في البداية: إنكـم لا زلتم تبحثون فوق الجلد، لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر".

الحضارة التي ولغ فيها الإنسان في الدماء حتى غدا شيطانًا مريدًا: "له وجه إنسان ولكنه ليس إنسانًا. إنه آلة، إنه الشيطان، إنه يشـبه الإنسـان بكليته باسـتثناء الروح. لقـد ولغ الآخرون جميعًا في الدم، وهم الآن كالعفاريت... إنهم ليسـوا بشـرًا... لـم يبق بيـن كل هؤلاء رجلاً واحدًا يمكن أن يكون إنسـانًا".

هـل ثمة من أمل؟ الغربيون عندما يصلون إلى هذه النقطة

يحلمـون، وتمتـد رؤاهـم إلى مسـتقبل يخـرج فيه الإنسـان من المـأزق. كيف يتـم ذلـك، وفـي أي طريـق؟ إنهـم هم أنفسـهم لا يعرفـون. وهذا أمـر طبيعي لأي إنسـان لا يتلقـى عـن الله. كثيرون هـم أصحـاب الأحـلام، وكثيـرون هم أولئك الذين رسـموا لنـا أحلامهم في "يوتوبيات" وعوالـم مثالية لم يتح لأي منها أن يجد طريقـه إلى التحقّق... من عهد أوغسطين -حيث فقدت المسيحية روحها وقطع الإنسـان صلتـه الحقيقية بـالله- وإلـى عهد كاتبنـا الروماني هذا، عبـر أحـلام "سـافونا رولا"، و"توماس مور" والاشتراكيين الطوبائيين، و"نيتشه" و"اشـبنغلر" و"توينبـي" وغيرهم كثيرون. ذلـك أن المصدور لا يشـفي المرضـى، والأعمى لا يهب النـور للمتخبطين في الظلمـات... إن هنالـك طريقًا واحدًا للخـلاص، ذلك الذي جاء الأنبياء عليهم السلام ليمهدوه للبشرية، وجاء الرسول ﷺ ليضع معالمه الأخيرة، ذلك هو طريق التلقي عن الله والإسلام المطلـق لألوهيته وحاكميته. هذا إذا كنا نريد خلاصًا حقيقيًّا، وإلا فسـتظل الأحلام تخدرنا عـن الرؤية الحقيقية، وتقعد بنا عـن بذل الجهد والتشـمير للكفاح. وثمة سـؤال ملح يفرض نفسـه هنا، وهـو أن الحضارة الغربية المعاصـرة تمثل قمة ما أحرزتـه البشـرية من تقـدم علمي وتقني، فهـل يعني نقد هذه الحضارة رغبة سلبية في التخلّي عن هذه المكتسبات؟

إن الانخـراط في المجتمـع التكنولوجـي، والمواجهة بين الإسـلام والثـورة التقنية، لا تدفع المسلـم إلى إنكار موقفه الدينـي، بـل إلى تعميقـه أمام العـالم وأمـام الله سبحانـه، متوجبًـا عليـه محاولـة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل.

المكتسبات الحضارية

إن سـؤالاً كهـذا لا مبـرر لـه علـى الإطـلاق. أولاً لأن هـذه المكتسبات هي حصيلة تاريخ طويل من الكد والجهد المضني أسـهمت فيـه كل الأمم والحضـارات وهو ليـس حكرًا على المجتمـع الغربي. ثانيًـا أن هذه المكتسـبات العلمية والتقنية هـي في حـد ذاتها حيادية الطابـع، إذ لا عقل لهـا ولا إرادة ولا روح لكي تتحكم في مصير البشـرية، وإنما الذي يعطيها التوجه صوب هذا الطريق أو ذاك، هو عقل الإنسـان وإرادته ورؤيتـه للكـون والحياة والإنسـان، بمعنى آخر؛ إن الفلسـفة التـي تصـدر عنها الحضـارة المعاصرة، هي السـبب في هذه الوجهـة المدمرة التي تتجـه إليها القوة الصناعيـة في العالم. ثالثًا لأن الإسـلام يجعل الحرص على التقدم، واسـتغلال قـوى الطبيعـة، واحتضان المكتسـبات العلميـة، واجبًا محتمًا على المسـلمين دولاً وجماعـات ومؤسسـات وأفـرادًا، ولكنه لا يسمح أبدًا بأن يستعلي (شيء) فـي الأرض -غيـر الله سـبحانه- علـى الإنسـان الذي كرمه خالقـه وحمله في البر والبحر، وفضله على كثير ممن خلق تفضيـلاً. ومن ثم تبدو مأسـاة الحضارة المعاصـرة فـي أنهـا أخضعت الإنسـان للأشـياء فأشـعرته بالدونية، واستعبدته، وكان لابد من العقاب.

مارسيل بوازار

إن ما يعانيه الإنسان في البيئات التي رفضت الإيمان، أو عزلته عن مجرى الحياة الواقعة من تعاسـة وازدواج وتمزق وشـقاء نفسـي وروحـي وعاطفي واجتماعـي رغم ارتفـاع منحنيات الإنجـاز المـادي، أمـرٌ ملحوظ ينطق بـه واقع الحـال هناك، وتؤكده شـهادات المفكريـن وإعلامهم الذي يمكن للمرء أن يلتقي به صباح مساء في عصر المعلوماتية والتواصل السريع.

ثم إن هذا النشـاط العلمي المنشـق عن مطالب الإيمان، اندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلّط، ونداء الأنانيات العرقية والدوليـة والمذهبيـة، ومضى أبعد من هـذا باتجاه كل ما هو لا أخلاقـي فـي السـلوك البشـري، لكـي يحـول المنجـزات والكشـوف العلميـة إلى سـلاح يشـهر بوجه الإنسـان وليس لصالـح الإنسـان. إن إنتـاج القنابـل الذريـة والهيدروجينيـة والنيوترونيـة، والأسـلحة الكيمياويـة والجرثوميـة... إلـخ، واسـتعمالها فـي اللحظـات الصعبـة، ليؤشـر بشـكل واضح على الكارثة التي يمكن أن يسـاق إليها الإنسـان والبشرية إذا أتيـح للعلم أن يظل علـى جموحه، على خروجه عن مطالب الإيمـان العليا، علـى عدم انضباطه بالقيـم والموازين الإلهية العادلة التي تجعل القوة والحكمة -دومًا- في كفتي ميزان.

المعرفة المؤقتة

هذا إلى أن المعرفة المؤمنة -على خلاف المعرفة اللادينية أو

الملحدة- تسعى لأن تمنح أكلها للناس كافة، لا تحكمها أنانية الحفاظ على السرّ، وحجب الاكتشاف -بدافع براغماتي- عن الآخرين. إن الإنسان، مطلق إنسان، هو المستفيد في نهاية الأمر من المعرفة المؤمنة، وبالمقابل فإن عشرات من الأمم والشعوب لم تحرم بالمعرفة اللادينية من حقها المشروع في الإفادة من ثمار هذه المعرفة فحسب، وإنما وجهت نتائجها وكشوفها إلى أسلحة فتاكة لتدمير هذه المجتمعات واستعبادها والهيمنة على مقدراتها. والباحثون الغربيون أنفسهم انتبهوا إلى هذا، وقدموا شهاداتهم بهذا الخصوص، والتي تجيء كاعتراف حرّ مدعم بالقناعات العقلية، وموثق بالرؤية المقارنة لما يتضمنه الإسلام من قيم وخصائص متميزة وفعالة، يمكن أن تمارس دورها في صياغة حاضر الإنسان ومستقبله، وأن تردم الفجوة في مفارقة العلم والتقدم.

إن هذا الدين كما يقول "مارسيل بوازار" رجل القانون الفرنسي المعاصر: "يعود إلى الظهور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع"، ولطالما أعرب عن اقتناعه "بأن في وسع العالم الإسلامي -من بين عوالم أخرى- أن يقدم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب"، وأنه "يبدو أحد العوامل الممكنة الهامة في الإنسانية العالمية الحديثة... وهو مستمر في البحث عن الأشكال الكفيلة بالتعبير بصورة ملائمة عن تطلعاته"، والمسلمون -كما يؤكد الرجل- "لا يشكون على الإطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المتراكمة عبر العصور، كفيلة بتقديم حل لمعضلات العالم المعاصر".

ولم يفت "بوازار" أن يشير إلى أن التقدم العلمي المادي لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية فتوجهه بالتالي لصالح الإنسان. ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشاط المعرفي المادي، يمكن للإسلام "أن يؤدي دورًا حقيقيًّا في تنظيم العالم المعاصر عندما يتقدم إليه بمفهومه السامي للقيم الخلقية". وأهمية المشاركة الإسلامية تبدو أيضًا في نظر "بوازار" في التوازن الذي يمنحه الإسلام، بما أنه تعبير عن روح ديني لمسيرة المجتمع البشري، بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة... لا سيما وأن "الانخراط في المجتمع التكنولوجي، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه الديني، بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله، متوجبًا عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل".

الديني والدنيوي

إن "بوازار" يضع يده ها هنا على واحدة من أهم خصائص المنظور الإسلامي للنشاط الحضاري، إنها معادلة التوازن الملحّ والمطلوب بين الديني والدنيوي، بين السماء والأرض، وبين الروح والجسد. فليس ثمة إيمان متحقق في واقع الحياة إن لم يعبّر عن نفسه في إطار نشاط تتداخل فيه وتتوحد وتتناغم سائر الثنائيات. فالمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية بالتالي، ليست مواجهة أضداد متقابلة، بل هي مقاربة واحتواء وتوظيف للقدرات والإمكانات التقنية من أجل تكوين حياة إسلامية أكثر أصالة وتقدمًا. إن القناعة الدينية كما يستنتج "بوازار": "تفرض نفسها حكمًا مطلقًا على كل المستويات، ولا يمكن بدونها، أو بالحري على النقيض منها، مواجهة أي تغيير اجتماعي ولا أي تجديد مادي".

وهذا الارتباط المحتوم بين الدين والتكنولوجيا في المنظور الإسلامي، لا يعني البتة أن الحضارة الإسلامية ستقود "تطورها داخل إنبيق" وبمعزل عن العالم، بل على العكس تمامًا، فإن هذه الحضارة "المتسامحة والمنفتحة بشكل طبيعي، تتطلع إلى العمل بصفة شريك فعال في الحياة الدولية". ويكفي أن نتذكر الجنوح المادي الذي تعانيه حضارة الغرب، يكفي أن نفكر في احتمالاته المنذرة بالخطر، المتوعدة لأماني الإنسانية وللإنسان ذاته، لكي نعرف أن دخول الإسلام إلى الساحة وإعادته الأمر إلى نصابه بتحقيق التوازن المطلوب، ليس مجرد مشاركة فعالة، وإنما هو عملية إنقاذ للوضع البشري المنحرف عن الصراط.

وإذ يؤكد "بوازار" ما يقدمه القرآن الكريم في هذا السياق من "ثقة مطمئنة، وحافز قوي في وقت معًا"، فإنه يحذّر من "أن إسلام المستقبل ودوره في العلاقات الدولية" لا تجيء به الأماني والأحلام، وإنما هو "رهن بما يصنعه المسلمون أنفسهم". و"بوازار" يشير إلى احتمال قيام نهضة مستقبلية في عالم الإسلام تستمد مقوماتها "من طابع الرسالة الإسلامية الإجمالي وأثره الحاسم في وجدان المسلمين"، ولكنه مرة أخرى لا ينسى أن يشير إلى أن نهضة كهذه، قد تتضمن اليسر والعسر "في آن معًا"، ويعتبر هذه المسألة "بديهية" يتحتم أن "يدركها المسلمون تمام الإدراك".

و"بوازار" محق في هذا، لأنه ينظر إلى المسألة من جانبيها، فلا يسدّ الطريق أمام احتمالات المستقبل، ولا يمنّي المسلمين بحلم سهل تصير فيه المعجزة أمرًا مشهودًا وهم قاعدون. إنما لا ينسى "بوازار" أن يعيد تأكيده المرة تلو المرة، على أن نهضة كهذه تظل مشروطة ببعدها الديني، ذلك "أن الإسلام الراشد يرفض فصل الروحي عن الزمني". وبالتالي فإن أية محاولة لبناء نهضة على أساس لاديني سيؤول إلى الفشل، لأنه لا يعدو أن يكون تزييفًا على السطح، عملاً مصطنعًا لا يحاول أن يمدّ جذوره في الأرض فيسهل اقتلاعه... بينما يظل الإسلام وحده "بديناميته كفيل بإقامة مجتمعات جديدة". وما يزيد إسلامية الصياغة المستقبلية للنهضة المنشودة تأكيدًا، أن المسلمين -كما يلحظ "بوازار"- "يعون الاضطراب النفساني الذي تعانيه الحضارة الصناعية والمادية، ويثقون في الإمكانات الاقتصادية المستقبلية للدول الإسلامية"، ولذا يجدون أنفسهم في الطريق "للحصول على ضمانة ذاتية تسهل لهم اكتشاف أشكال سياسية واقتصادية أصيلة متوافقة مع روح التنزيل بشأن الجماعة، ويكون تطبيقها بالتالي أيسر على صعيد الممارسة العملية".

معضلات المجتمع المعاصر

والمسلمون -كما يؤكد "بوازار"- "لا يشكون على الإطلاق في أن التعاليم المنزلة والقيم المتراكمة عبر العصور كفيلة بتقديم حل لمعضلات المجتمع المعاصر بإعادة بناء مؤسسات الإسلام السياسية وإنعاش أصالته الخلاقة. ويبدو أن "الإسلام" يشكل أفضل الوسائل الممكنة لإعادة بناء مجتمع ما بعد الاستعمار، وتلك هي دعوته الروحية والسياسية والدولية الحقيقية". يواصل "بوازار" تحليله فيشير إلى "أن الإسلام دين حي ودينامي يحاول إيجاد مجلى لقوته الداخلية للاشتراك في الحياة الدولية المعاصرة، وفي مساهمته أن تكون جوهرية، لا لأنه يملك فقط تجربة عمرها أربعة عشر قرنًا في العلاقات بين الشعوب، بل لأنه ينقل -كذلك- رؤية أخلاقية للغاية من القانون الدولي، معتبرًا أن الإنسان في التحليل الأخير، رعية من رعايا النظام وهدف أخير من أهدافه". ويؤكد "بوازار" أن ليس ثمة أمام الدول الإسلامية "أي خيار بديل لبناء مستقبلها" وأن ليس على المفكرين المسلمين أن يعدّوا بناءً "أيديولوجيًّا"، فهذا أمرٌ حاصل، إنما عليهم "أن يخلصوا الإسلام من ثقل التقاليد المتراكمة فيعود كما كان في البدء: تحرير العقل وثورة الفكر الحرّ وتوطيد الإنسان".

العودة إلى النبع ذلك هو المطلوب، دون إنكار -بطبيعة الحال- للخبرات "التاريخية" العقدية والفقهية الأصيلة التي تشرح وتوضّح وتلاحق المتغيرات، وهذه -بالتأكيد- ليست "التقاليد المتراكمة" التي يعنيها "بوازار". والمهم أن العودة إلى النبع هي القاعدة والمنطلق، فهناك في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ يمكن أن نجد الإجابة على كل سؤال، والتخطيط لكل ما هو كائن وما يمكن أن يكون على مستوى الروح أو المادة، السماء والأرض، الدين والسياسة معًا. "إن الإسلام المعاصر، بطموحه وديناميته، في حالة استعادة كاملة لدعوته، دينًا منفتحًا يفرض قيمًا جوهرية دائمة. وها هو ذا الإسلام الديني يمتد ويشع، والإسلام السياسي يترسّخ ويتوطد".

يمضي "بوازار" لكي يؤكد النزوع التجاوزي للإسلام الذي لا يقف أو يسكن عندما هو كائن، بل يمضي نحو الأحسن والأعلى صوب ما يجب أن يكون. إن الإسلام -كما يلحظ الرجل- يخلق "مثالية حقيقية لأنه خضوع لنظام استعلائي". وعندما يورد "بوازار" كلمة "حقيقية" مضافة إلى المثالية الإسلامية فإنه يعني ما يقول على وجه التحديد، فإن مثاليات شتى حلم بها مئات الوضعيين وأتباع الأديان المحرّفين فلم تتحقق ولم تصنع شيئًا، لأنها في الواقع لم تكن "حقيقية". ها هنا حيث "الدينامية" التي "يولدها" المناخ الديني في الإسلام، وحيث النزوع الدائم إلى فوق، وحيث "التعبير عن المجتمع ليس تبعًا لما هو عليه، وإنما لما يريد أن يكون"، كفيلة بأن تقرّب المثال أو تقترب منه، فتجعل من معطياته متحققة في العالم، متجذرة في الأرض.

ويلجأ "بوازار" إلى الخبرة التاريخية لكي يؤكد، بل يشدّد "على صلاحية الإسلام للزمن الراهن ولكل زمن آتٍ بطبيعة الحال... فإن وراء هذه الخبرة وتلك الصلاحية قناعة دينية تحمل "ديمومتها" التي تتجاوز نسبيات الزمن والمكان". وما يلبث "بوازار" أن يلخص الأمر كله بهذه الكلمات: "لسوف يستعيد الإسلام مصيره دون ريب إذا حكمنا عليه من خلال القدرة الخارقة التي أثبتها تاريخيًّا على التكيّف والانبعاث". ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

أ.د. عبد الحليم عويس*

الطريق إلى إحياء علوم الدين والدنيا معا

كان أبو حامد قادرًا على الانطلاق وعلى التحكم في الذات، وعلى أن يعيش في الدنيا وأن يعتزل ويعيش في السنوات الطوال بين الدنيا والآخرة. يا له من عظيم خدم الإسلام والمسلمين في منعطف من منعطفات الطريق.

في سنة (٥٠٥هـ) ترك لنا العملاق الكبير أبو حامد الغزالي موسوعة ضخمة أطلق عليها اسم "إحياء علوم الدين"، ومات -رحمه الله- بعد أن عاش في دنيانا مدة قصيرة من الزمن إذا قيست بأعمار بعض الناس. فقد ولد سنة (٤٥٠هـ)، أي إنه عاش خمسًا وخمسين سنة؛ اعتزل فيها الدنيا سنوات ليست بالقصيرة، متفرغًا للتفكير وللتدبر في الوحي والكون والعقل والنفس. وقد تألق في دحضه لحجج الفلاسفة، وأخرج للدنيا كتاب "تهافت الفلاسفة"، وأعطانا خلاصة تفكيره ونجاحه في الخروج من مستنقع الشك إلى أعلى درجات اليقين في كتابه "المنقذ من الضلال والهادي إلى ذي العرش والجلال".

إن القرن الذي عاش فيه الغزالي كان قرن صراعات كلامية قاتلة بين المتكلمين والمحدثين والفقهاء. وفي نفس الوقت ساد التصوف البدعي الذي مثّل مرحلة تخدير للأمة نمت تحت ظلالها الحركات الباطنية والقرمطية، وتقدم الصليبيون يزحفون بجحافلهم من كل بلاد أوروبا؛ لأنهم أدركوا مستوى القاع الذي انحدر إليه المسلمون، وعرفوا أن قبلتهم لم تعد

واحدة ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾(الحشر:١٤).
أما أصحاب الحركات الضالة الذين غلبتهم اللاعقلانية واللامنطقية، فأوّلوا الإسلام تأويلاً باطنيًّا غنوصيًّا، وشتتوا وجدان المسلم وعقله، فقد استحقوا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾(آل عمران:٧)، وقليل منهم هم الذين كانوا من الراسخين في العلم الذين يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾(آل عمران:٧).

أبو حامد الغزالي وابن خلدون

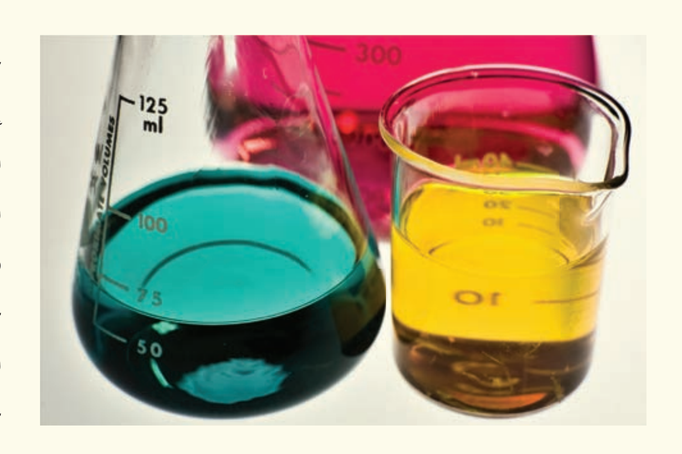
وتلفت أبو حامد حوله فلم يجد معينًا له على الحق الذي يعرفه، ولا على الفقه الشمولي للإسلام الذي يريده. فقد رأى تآكل أهل الحق الداخلي، وشراسة أهل الباطل الخارجية، وامتداد الملحدين في فراغ المسلمين. وفي إطار الجمع بين الخلوة والتفاعل، والشريعة والحكمة، والحديث والفقه، كتب أبو حامد كتابه الذائع الصيت "إحياء علوم الدين". فكان شأنه في ذلك شأن عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ)، الذي تشابه عصره بعصر أبي حامد الغزالي، فكتب كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". والجزء الأول من كتابه "العبر" هو ما يسمى باسم "مقدمة ابن خلدون"، الذي أصبح من أمهات الكتب وروائع الفكر العالمي، إذ ارتفع بها صاحبها إلى درجة سقراط وأرسطو وأفلاطون كما يقول المؤرخ البريطاني المعروف "أرنولد توينبي" الذي كان من أكبر المدافعين عن قضايا العرب وحضارتهم.

الحاجة لعلوم الدين وعلوم الدنيا

إن العلوم المسماة "ظلمًا" بعلوم الدنيا قد تكون -إذا توافرت لها النيات الصالحة والأدوات الصحيحة والمقاصد النبيلة- من علوم الدين. فالطبيب الذي يعالج الأبدان لتكون قادرة على العمل والجهاد، أشرف وأزكى وأقرب إلى الله من الفقيه الذي يميت على الناس دينهم، ويمزق رؤيتهم، ويميل إلى التشدّد بدعوى الورع أو الأخذ بالأحوط حتى ولو تسبّب في تدمير العائلات وتفكيك المجتمعات، وقد يمتلئ قلبه بالتعصب المذهبي والبغض لإخوانه المتبعين للمذاهب الأخرى... وهكذا يمكن أن نقول في سائر علوم الدنيا.

إن تكوين الفقيه والداعية من خلال "علوم الدين" بطريقة كمية انعزالية لم يعد كافيًا في عصر التحديات العلمية الهائلة، ولا طريق أمامنا إلا بناء داعية جديد يجمع بين فقه علوم الدين وفقه علوم الدنيا مع قدرته على قيادة الواقع بالوحي والفكر معًا.

ولئن ران على عقول المسلمين نوع من الفقه الكليل بالدين وعلومه، فقد ران على عقولهم نوع من الجهل الفاضح بعلوم الدنيا، فبينما أصروا على "فرض" حفظ القرآن على أبنائهم، أصرّوا في الوقت نفسه على "رفض" تدبّر القرآن واستكشاف الآفاق والسنن والكونية المحدّدة والمحققة لأسباب النهوض، ولعوامل التقوى ولعوامل الانهيار من جانب آخر، حتى يتأتى لنا أن نعرف الطريقين فنعمل بما يوصلنا "لامتلاك أسباب النهوض"، ونعمل في الوقت نفسه على "اجتناب أسباب السقوط". وظل القرآن يدرس في نطاق محدد، يدور بين إعجاز بياني وإعجاز فقهي (الأحكام) ولغوي وعقدي. لكن المسلمين الرافضين لعلوم الدنيا، عجزوا عن اكتشاف إعجاز القرآن التربوي مع أنه معجزة تربوية ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩) بالدرجة الأولى، ويسعى للتغيير الداخلي للنفس من أجل تغيير الواقع الخارجي، لأن تغيير ما بالخارج مشروط بتغيير ما



بالداخل. وجدير بالذكر أن أول ما يجب معرفته عن شعب حديث اليقظة الذي لا تزال آثار النوم الطويل بادية عليه هو: هل بيده أسباب تقدمه الذاتي الداخلي؟ إننا نجد في القرآن الكريم النصّ المبدئي للتاريخ التكويني: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). وينبغي أن لا نقرر هذا المبدأ حسب إيماننا به فقط، بل يجب أن يكون تقريره في ضوء التاريخ كما يقول مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة". وعلينا -هنا- أن نتأكد من شرطين -بطريقة داخلية وإيمانية قوية- أولهما: هل المبدأ القرآني سليم في تأثيره التاريخي؟ ثانيهما: هل يمكن للشعوب الإسلامية تطبيق هذا المبدأ في حالتها الراهنة؟ وفيما يتعلق بالنقطة الأولى، يؤكد لنا "مالك بن نبي" أن الحضارة بمعناها الصحيح الخالد، لا تنبعث -كما هو ملاحظ- إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في كل حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها. فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدّر الله على الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، هذا بالنسبة لصحة المبدأ القرآني. وبالنسبة للنقطة الثانية نقول: إنه من المعلوم أن جزيرة العرب -مثلاً- لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباءً لا ينتفع به، لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة؛ "الإنسان" و"التراب" و"الوقت" راكدة خاملة. حتى إذا ما تجلّت الروح بغار حراء، نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة، فكأنما ولدتها كلمة ﴿اقْرَأْ﴾ التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم. فمن تلك اللحظة (لحظة اقرأ) وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ، حيث ظلت قرونًا طوالاً تحمل للعالم حضارة جديدة، وتقوده إلى المدنية والرقي. لقد عجز المسلمون عن أن يستنبطوا من القرآن نظرية اجتماعية أو حسب تعبير "ابن خلدون"؛ علم العمران، وهو علم يضم علمي "الاجتماع" و"فلسفة التاريخ"، وحتى عندما جاء "ابن خلدون" وقدم تأصيلاً لعدد كبير من علوم الدنيا في مستوى الأنفس والآفاق، عجز المسلمون عن الاستفادة من "ابن خلدون" كما عجزوا في عصور التخلف عن الاستفادة المرجوة من الكتاب والسنة. مع أنهما يمثلان المرجعية الأساسية لنظرية المعرفة الإسلامية التي تمنحنا مفاتيح العلوم، وتمنحنا منهج البحث العلمي القائم على الوحي والنصوص الدينية، والعقل، والتجربة، أو بديهيات العقل السليم والحس السليم، فضلاً عن اللغة من حيث دلالتها الظاهرة المتعارف عليها، أي -بإيجاز- الاكتساب بالاختبار، والنقل بالتواتر.

ومشت عملية إحياء علوم الدين في تاريخنا عوراء أو عرجاء على هذا النحو... فلا هي اكتشفت في القرآن ما يتصل بعلوم الدنيا على النحو الذي يسمونه الآن "الإعجاز العلمي في القرآن" وبالتالي انطلقت بالمفاتيح القرآنية تكتشف الكون وعلومه وقوانينه، ولا هي بذلت جهدًا محترمًا في اكتشاف علوم الكون وقوانينه، ثم ذهبت بعد ذلك تتعامل مع القرآن ومفاتيحه من خلال علوم الكون التي اكتشفتها، بحيث تكتشف النسبة بين علوم الكون المنظور وعلوم القرآن المسطور. وقد تكتشف ما هو أهم وهو التطابق والتكامل بينهما، ومساعدة الوحي للعقل، وتفصيل العقل لمجمل الوحي وتطبيق دلالاته وتوجيهاته. كلا.. إن كل ذلك لم يقع إلا بنسبة ضئيلة تألّقت في عدد من الرموز الكبيرة في عصر تألقنا وازدهارنا الفكري، بينما بهتت واختفت في عصور ضعفنا العقلي والحضاري.

وانظر إلى حالنا في يوم الناس هذا... أين الفقيه والمفسر وعالم "العقيدة" الذي يلم بقدر مقبول من علوم الكون مثل الفيزياء والكيمياء والفلك وغيرها؟ إن هذا الفقيه الموسوعي الثقافة يكاد يكون نادرًا ندرة الكبريت الأحمر، وقد تجد بعض جوانبه موجودة بدرجة ما في عدد محدود، من أمثال الشيخ محمد الغزالي والشيخ الشعراوي وبديع الزمان سعيد النورسي وفتح الله كولن والطاهر بن عاشور "في التحرير والتنوير" وسيد قطب في "الظلال".

> **الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدّر الله على الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية.**

ابن حزم الأندلسي، الملمّ بعلوم الدين والدنيا

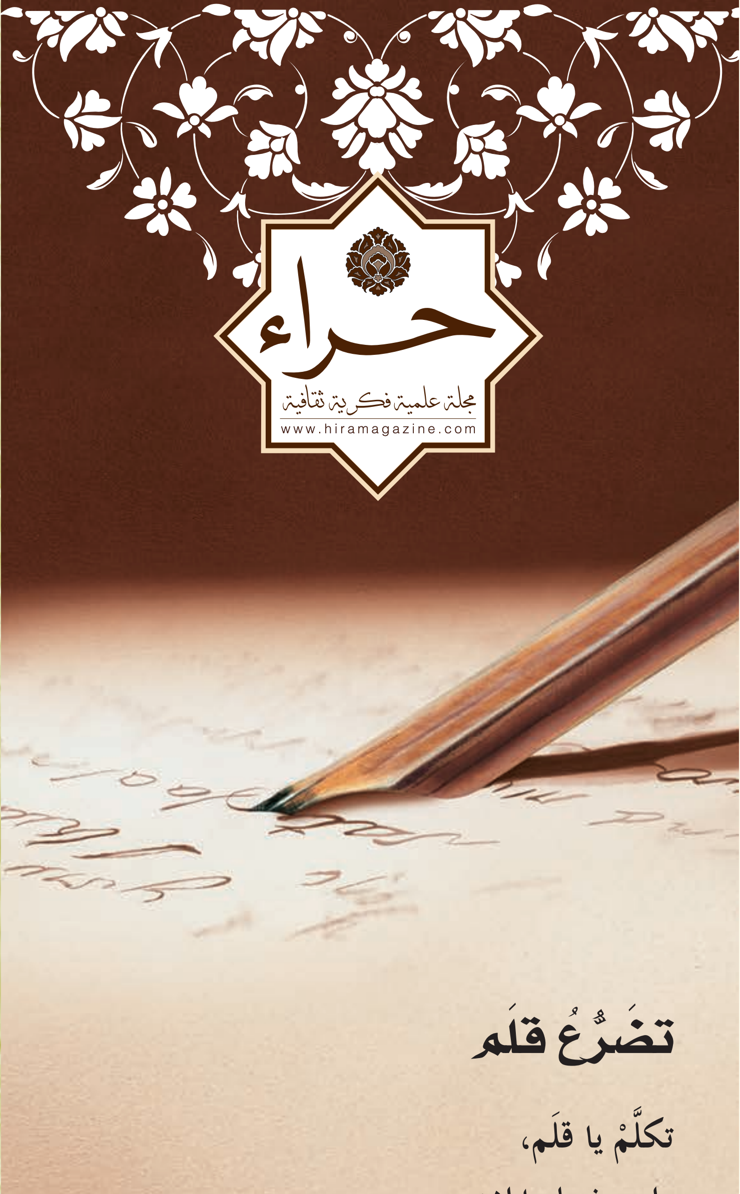
تأمل معي في الموضوعات التي عالجها الفقيه الظاهري أبو محمد علي بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ) صاحب كتاب "المحلى" بأجزائه الكثيرة في الفقه المقارن، وكتاب "الإحكام في أصول الأحكام" في أصول الفقه بأجزائه الخمسة. هذا الفقيه الظاهري، عالج -مع ذلك- قضايا "مقارنة الأديان"، واعتبر من مؤسسي هذا العلم من خلال كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"، وعالمًا في المنطق في كتابه "التقريب لحد المنطق"، وعالمًا في التاريخ في كتبه "جوامع السيرة" و"حجة الوداع"، ورسالته في "أمهات الخلفاء" و"المفاضلة بين الصحابة"، وكتابه "فضائل الأندلس وأهلها" و"نقط العروس"، وعالمًا في علم الأنساب في كتابه "جمهرة أنساب العرب" وهو من أصعب العلوم. وقد قدم مع كل ذلك وغيره نظريات أثّرت في تاريخ الحضارة الإسلامية والإنسانية، فقدم نظرية في الحب العذري الذي يسمونه "الأفلاطوني" زورًا وبهتانًا، وذلك من خلال كتابه "طوق الحمامة" وهو الكتاب الذي يقول عنه المؤرخ في الأدب الأندلسي أستاذنا الكبير الطاهر مكي: "إنه أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط في الشرق والغرب في العالمين الإسلامي والمسيحي"، وقدم من خلال كتابيه "التقريب" و"الفصل" نظرية في المعرفة مازجًا فيها بين ما يعرفه الإنسان ببديهة الفطرة وأوليات العقل، وما يعرفه الإنسان بالحواس السليمة عن طريق الاكتساب.

وقدم ابن حزم أيضًا نظرية في كتابه "الفصل" تحت عنوان "مطلب بيان كروية الأرض" وفيه يقول: إن أحدًا من أئمة المسلمين لم ينكروا تكوير الأرض، وقد جاء القرآن بتكويرها في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾(الزمر:٥)، وهذا إثبات لكروية الأرض بالدليل النقلي، أما بالدليل العقلي فيبني ابن حزم ذلك على ما أثر من ربط الصلاة بزوال الشمس، أي انتقالها من جهة إلى جهة. ومن ثم يبسط نظريته من خلال دراسة في أكثر من عشر صفحات. ومما يضاف إلى هذه المجالات الإبداعية التي قدمها ابن حزم للحضارة الإنسانية، رفضه النظرية التقليدية السائدة لدى المتكلمين والفلاسفة في العصور الوسطى، وهي نظرية "الجزء الذي لا يتجزأ". فإن ابن حزم قد جاهر بأنه: "ليس في العالم جزء لا يتجزأ، وأن كل جزء انقسم الجزء إليه فهو جسم أيضًا وإن دق أبدًا". وهي النظرية النسبية التي أظهرها "ألبرت آينشتاين" مخترع الذرة في عصرنا الحديث.

ابن خلدون آثاره العلمية الشاملة

ونكتفي من هذا النموذج الذي قدمه فكر ابن حزم "الظاهري" بهذا القدر، ونقدم نموذجًا آخر يتمثل في الفقيه المالكي "عبد الرحمن بن خلدون" صاحب "المقدمة". لقد عالج هذا الفقيه من خلال المقدمة موضوعات مثل: فن التاريخ، علم العمران وما يعرض فيه، علم الجغرافيا وتفاصيل الأقاليم في أقاليمها، وأثر الهواء في أخلاق البشر، وطبيعة أهل البدو وأهل الحضر، ونظرية العصبيّة، وتأثّر المغلوب بالغالب، وطبيعة





العرب وحاجتهم دائمًا للدعوة الدينية، وأحكام الخلافة والإمامة، والدواوين كديوان الرسائل والكتابة والشرطة، وغيرها... والسكة "العملة" والحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها، ومبادئ الخراب -أو الدمار- في الأمصار، والمعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، وأمهات الصنائع مثل صناعة البناء والنجارة والحياكة والوراقة، وعلوم تعبير الرؤيا وعلم العدد والحساب والجبر والمقابلة والعلوم الهندسية، وعلم الطبيعيات والفلاحة والطلسمات وصناعة النجوم، وعلوم اللسان العربي، وغيرها.

وهكذا أحيا علماؤنا "وفقهاؤنا" علوم الدين والدنيا معًا، ومزجوا بينهما مزجًا كاملاً، ولم يروا أي تناقض، بل رأوا ضرورة إحياء الدنيا بعلوم الدين، وإحياء الدين وتفعيله من خلال علوم الدنيا. وما عرفوا أسلوب الكنيسة في إهمال علوم الدنيا ومحاربة أهلها بدعوى الاكتفاء برؤية الكنيسة للحياة والعالم من خلال الكتاب المقدس. وفي مساجدنا كانت علوم الدين والدنيا تدّرس جنبًا إلى جنب، وينظر إليها على أنها متكاملة، وأنها كلها عبادة، بل كان الطالب ينتقل -في المسجد الواحد- من مجلس أو "عمود" أستاذ الفقه إلى أستاذ اللغة، وإلى أستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية.

إن تكوين الفقيه والداعية من خلال "علوم الدين" بطريقة كمية انعزالية لم يعد كافيًا في عصر التحديات العلمية الهائلة، ولا طريق أمامنا إلا بناء داعية جديد يجمع بين فقه علوم الدين وفقه علوم الدنيا مع قدرته على قيادة الواقع بالوحي والفكر معًا. إننا لا نملك سلاحًا ولا قوة سياسية أو اقتصادية نواجه بها تحديات العولمة، وليس أمامنا إلا قوة الفكر والقيم حين نحسن فقه ديننا ونحسن عرضه، فهذه القوة هي التي نستطيع بها أن نقدم الإسلام وحضارته للعالم، لا سيما وهو في حالة ضعف مشين في مجال القوة العقدية والقيمية والفكرية والروحية. إنه وصل إلى القاع وهو يعيش عالم "الأشياء" -لا غير- أي المادة، أما نحن فلدينا -مع جهودنا في عالم الأشياء- منظومة فكرية وقيمية وروحية. ■

تضَرُّعُ قلَم

تكلَّمْ يا قلَم،
واصرخ يا مداد:
"يا مَن بالقلم أقسَمْتَ!
أعوذ بك أن تلمسني يَدٌ جافية،
ويستخدمني عقل غبيّ،
وروح ضال...
وهَبْني -يا ربُّ- إلى مَن إليك يكتب،
وعليك يدُلّ..."

* * *

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



أ.د. حسان شمسي باشا*

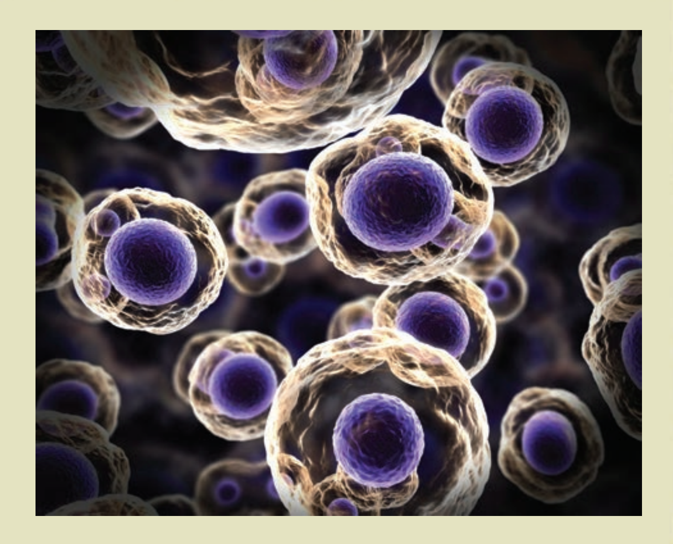
معجزة زيت الزيتون

أمران لطيفان معجزان من رسول الله ﷺ: "كلوا الزيت، وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة" (رواه الترمذي). كيف يدعو رسول الله ﷺ إلى تناول زيت الزيتون وهو دهن خالص؟ والدهون في عصرنا الحديث ليست من الأغذية التي ينصح بها الأطباء!

فحتى عام ١٩٨٥ لم يأبه أحد من الباحثين الأمريكيين والأوربيين بزيت الزيتون، بل إن كافة المراجع الطبية حتى ذلك الحين، كانت تحذّر المصابين بارتفاع الكولسترول أو بمرض شرايين القلب من تناول زيت الزيتون، حيث كان من المعتقد أنه يزيد من الكولسترول ويرفع دهون الدم.

وما أن طلع علينا الدكتور "غرندي" في دراسته الشهيرة التي ظهرت عام ١٩٨٥ والتي أثبت فيها أن زيت الزيتون يخفض كولسترول الدم، حتى توالت الدراسات والأبحاث تركز اهتمامها حول فوائد زيت الزيتون، وتستكشف يومًا بعد يوم المزيد من أسرار هذا الزيت المبارك الذي أتى من شجرة مباركة.

وكيف لا تكون الشجرة مباركة وقد أقسم الله تعالى بها أو بأرضها -على اختلاف بين المفسرين- في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۞ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:١-٤).



وكيف لا تكون مباركة وقد شبّه الله تعالى نوره بالنور الصادر عن زيتها حين قال في القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(النور:٣٥).

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة" (رواه ابن ماجة). فالشجرة مباركة.. والزيت مبارك.. ولكن كثيرًا من الناس عنه غافلون.

فزيت الزيتون هبة السماء للإنسان، عرف القدماء بعضًا من فوائده، وأدرك الطب الحديث -منذ سنوات معدودات- بعضًا آخر. والطريف أن يأتي عنوان مقال نشر في مجلة "Dermatol Clin" -وهي من أشهر المجلات العالمية في أمراض الجلد- في شهر أبريل ٢٠٠٩: "Virgin Olive Oil As A Fundamental Nutritional Component And Skin Protector" ومعناه بالعربية: "زيت الزيتون البكر كعنصر غذائي أساسي وكواقٍ للجلد". أليس هذا ما جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام قبل أكثر من ١٤٠٠ عام؟

"كلوا الزيت"

عرفنا حديثًا أن زيت الزيتون يقي من مرض العصر؛ جلطة القلب، ويؤخر من تصلب الشرايين. وتلاشت الأسطورة التي كانت تقول إن زيت الزيتون يزيد كولسترول الدم، ذلك الشبح الذي يقضّ مضاجع الكثيرين. وتبين للعلم الحديث أن زيت الزيتون عدو للكولسترول يحاربه أنّى كان في جسم الإنسان.

فقد نشرت مجلة "Nutrition Metabolism and Cardiovascular Disease" في شهر مايو ٢٠١٠ ملخصًا لتقرير المؤتمر العالمي الثاني الذي عقد حول زيت الزيتون في مدينة قرطبة، وحضره خمسون من أكبر علماء العالم في أمراض القلب والسرطان وغيره.

وخلص هؤلاء الباحثون في تقريرهم إلى أن تناول زيت الزيتون كجزء من النظام الغذائي، يقلل من احتمال حدوث أمراض شرايين القلب، والبدانة، والمتلازمة الاستقلابية، ومرض السكري الكهلي، وارتفاع ضغط الدم.

وقد استعرضت مقالة مطولة نشرت في مجلة "International Journal of Molecular Sciences" في شهر فبراير ٢٠١٠ الأبحاث العلمية في السنوات الأخيرة، والتي ركّزت على دور المركبات



الفينولية الموجودة في زيت الزيتون البكر، حيث تلعب دورًا فيزيولوجيًّا كبيرًا في دهون الدم، والوقاية من التخرب التأكسدي، ومؤشرات الالتهاب، ووظائف صفيحات الدم، إضافة إلى تأثيراتها كمضاد للجراثيم ومحافظ على صحة العظام.

كما أن هذا الغذاء الغني بزيت الزيتون، يحسّن من العوامل المهيئة لأمراض شرايين القلب مثل ارتفاع دهون الدم وضغط الدم، ويقلل من اضطراب وظيفة بطانة الشريان، والتخرب التأكسدي وتخثر الدم.

زيت الزيتون والوقاية من أمراض القلب

والحقيقة أن الأمريكان يغبطون سكان حوض البحر الأبيض المتوسط على غذائهم، فهم يعرفون أن مرض شرايين القلب التاجية أقل حدوثًا في إيطاليا وإسبانيا وما جاورهما مما هو عليه في شمال أوروبا والولايات المتحدة. ويعزو الباحثون انخفاض معدل حدوث أمراض القلب، وبعض أنواع السرطانات في دول حوض البحر المتوسط جزئيًّا إلى تناول زيت الزيتون المنتظم كجزء من غذاء سكان حوض البحر المتوسط، حيث يتناول هؤلاء ما بين ٢٥-٥٠ جرامًا من زيت الزيتون يوميًّا.

نشرت مجلة "Journal Cardiovasc Pharmacol" الصادرة في شهر ديسمبر ٢٠٠٩ مقالاً استعرضت فيه فوائد زيت الزيتون على القلب، وكيف أن استهلاك زيت الزيتون المنتظم عند سكان حوض البحر المتوسط، قد أدى إلى انخفاض معدلات الوفيات من أمراض شرايين القلب في الدول الأوروبية الجنوبية المطلة على حوض البحر المتوسط، رغم ارتفاع معدلات عوامل الخطورة المهيئة لمرض شرايين القلب عندهم.

وأكدت دراسة نشرت في مجلة "Maturitas" في شهر يناير ٢٠١١ أن هناك علاقة عكسية بين تناول زيت الزيتون وحدوث جلطة القلب.





وأظهرت دراسة "Epicor Study" التي شملت ٢٩,٦٨٩ امرأة، أن النساء اللواتي يتناولن زيت الزيتون والخضروات الورقية، ينخفض عندهن حدوث مرض شرايين القلب بنسبة ٤٤٪.

ولا يخفض زيت الزيتون الكولسترول الضار فحسب، بل إنه -حسب الدراسات الحديثة- يرفع الكولسترول المفيد.

زيت الزيتون ومرض الزهايمر

وليس هذا فحسب، بل إن الدراسات تشير إلى أن زيت الزيتون يمكن أن يحمي من تدهور الذاكرة ومرض الزهايمر. فقد أظهرت دراسة نشرت في مجلة "Nutrition Metabolism and Cardiovascular Disease" عام ٢٠١٠، أن خلاصة زيت الزيتون الغني بمركب هيدروكسي تيروزول يمكن أن تقي الخلايا العصبية بالمخ، من التدهور الطبيعي المصاحب للتقدم في العمر وخرف الزهايمر.

زيت الزيتون والسرطان

أكد مقال نشر في مجلة "Nutr Cancer" عام ٢٠٠٩، أن هناك علاقة وثيقة بين تناول زيت الزيتون وانخفاض معدل حدوث سرطان الثدي والمعدة، كما أشارت دراسة نشرت في مجلة "Nutrition Metabolism and Cardiovascular Diseases" عام ٢٠١٠ إلى أن التأثير الواقي لزيت الزيتون من السرطان، يكون أشد إذا ما بدأ تناول الزيت قبل سن البلوغ واستمر على ذلك مدى الحياة.

زيت الزيتون في سن اليأس

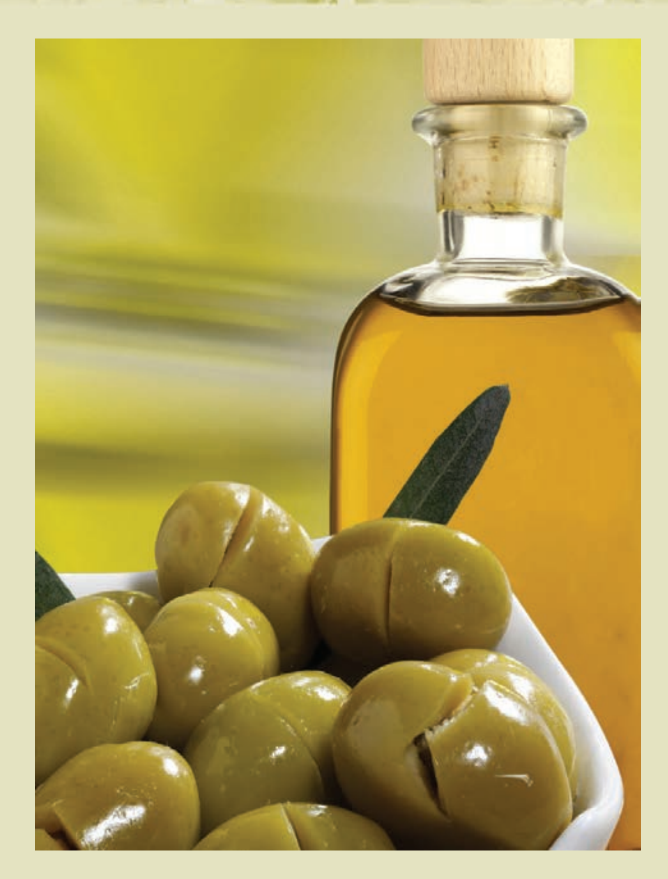
أشارت دراسة حديثة إلى أن تناول زيت الزيتون يوميًّا، ينقص تخرب الـ"DNA" عند النساء في سن اليأس، حيث طلب من النساء تناول ٥٠ جرام من زيت الزيتون يوميًّا ولمدة ثماني أسابيع من أجل الوصول إلى هذه النتيجة العلمية المفيدة.

هشاشة العظام وزيت الزيتون

وفي دراسة نشرت في مجلة ".Osteoporos Int" في شهر فبراير ٢٠١١، تبين أن مركبات الفينول في زيت الزيتون تقي من هشاشة العظام. كما يعتقد الباحثون أن له دورًا واعدًا في معالجة هشاشة العظام في سن اليأس.

"وادّهنوا به"

يوصي رسول الإنسانية ﷺ في الشطر الثاني من الحديث النبوي: "كلوا الزيت وادّهنوا به" بالإدهان بزيت الزيتون. وتأتي الدراسات العلمية الحديثة لتثبت فوائد زيت الزيتون على الجلد. فقد نشرت مجلة "Clin Dermatol" في شهر أبريل ٢٠٠٩



مقالاً مطولاً استعرضت فيه فوائد زيت الزيتون على الجلد.

زيت الزيتون ملطف للجلد عند الوليدين

كما ذكرت دراسة نشرت في مجلة "Pediatr Dermatol" الصادرة في شهر أبريل ٢٠٠٨ فوائد استخدام زيت الزيتون كمرطب وملطف للجلد عند الوليدين الخدّج ، فقد تفوق استخدام زيت الزيتون كمرطب وملطف للجلد عند الخدّج على غيره من الزيوت.

زيت الزيتون وقاية من سرطان الجلد القتامي

أكدت دراسة نشرت في مجلة "International Journal of Cancer" في شهر أبريل ٢٠١١ أن الإدهان بزيت الزيتون موضعيًّا بعد السباحة والتعرض للشمس، يمكن أن يقي من حدوث سرطان الجلد القتامي (Melanoma).

استخدام زيت الزيتون في طهي الطعام

يتساءل الكثيرون عن أفضل زيت يستخدم في طهي الطعام، وتأتي الدراسات العلمية لتؤكد أن هذا الزيت المبارك الذي أوصى به رسول الله ﷺ هو أفضل الزيوت على الإطلاق. فقد أظهرت دراسة حديثة نشرت في مجلة "Journal of Medicinal Food" في شهر مارس ٢٠١١، أن الطعام المطهي بزيت الزيتون يحسّن استجابة الإنسولين بعد تناول الطعام عند النساء البدينات. وأكدت دراسة أخرى نشرت في مجلة "European Journal of Clinical Nutrition" عام ٢٠٠٩، أن خطر حدوث البدانة كان أعلى بأكثر من الضعف عند من استعمل زيت دوار الشمس في طهي الطعام بالمقارنة مع من استعمل زيت الزيتون! ويعزو الباحثون سبب ذلك إلى أن درجة احتراق زيت الزيتون هي أعلى مما هي عليه في غيره من الزيوت.

هل في أوراق شجرة الزيتون من فوائد؟

لقد وصف الله تعالى شجرة الزيتون كلها -وليس زيتها فقط- بأنها مباركة.

ويأتي العلم الحديث ليكتشف شيئًا من تلك الفوائد.. فقد نشرت مجلة "International Journal of Cancer" في عام ٢٠١٠ بحثًا أشار إلى الخواص المضادة لسرطان الجلد القتامي في خلاصة أوراق شجرة الزيتون. كما أشار مقال نشر في مجلة "Food Chem Toxicol" في عام ٢٠١١ إلى الدور المحتمل لأوراق الزيتون في الوقاية من ارتفاع ضغط الدم والسكري والسرطان وتصلب الشرايين ومعالجتها. ولا شك أن ذلك الأمر بحاجة إلى مزيد من الدراسات.

وبعد، فهذا غيض من فيض مما نشر من أبحاث حول زيت الزيتون خلال الأعوام القليلة الماضية. فطوبى لمن نال من خيرات هذه الشجرة المباركة، وطوبى لمن صدّق ما جاء في قرآننا الكريم وسنة الحبيب المصطفى ﷺ. ■

(*) استشاري أمراض القلب في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة / المملكة العربية السعودية.



طويلا بكينا

أضحى البكاءُ قدرَنا.. ما عرفنا غيرَ البكاء منذ سنين وسنين.. بكينا على إنساننا الذي مات، وعمراننا الذي تهدّم، وبَيدرنا الذي انتُهِب، وآمالِنا التي هوت قواعدُها، وشجاعتِنا التي خبا أوارُها. إن الغربي الذي حسِبنا أن لديه مصباحَ حياتنا، كان قد ارتمى على مصطبة النعش قبلنا بكثير. إنه مات في ذلك اليوم الذي هبّ فيه "نيتشه" ليُردِي الإلهَ لباسَ الموت معلنًا في وهمه أن "مات الإله".. إن الميت لم يكن سوى الغربي نفسه، وإنساننا المسكين معه.. إنساننا الذي غرق في المستنقع من حيث ظن أنه خرج من السجن ناجيًا.. إنساننا العابث المتفلّت الذي تمرد على كل شيء وأنكر كل شيء. أيّ سجن ذاك الذي زعم أنه ناجٍ منه، وأيّ غنيمة تلك التي حسب أنه نائلها؟! هيهات هيهات... لا مِن سجنٍ نجا، ولا من حظّ نال.. لم يتغير إلا إيقاع الحياة لديه، وظل يسمع الصخب نفسه، لكن في نمط آخر هذه المرة.

أجل، لقد نجحت الساحرة "هيلينا" في أن تستهوي قلبًا جديدًا بِعزف كمانها. فهل من جدوى إذا عرفنا صاحب ذلك

القلب ما دام المنتصر هو الشيطان؟! إن اسم المهزوم لدى "كريستوفر مارلو" كان الدكتور "فاوست"، أما لدى "غوته" فقد كان "فاوست" فقط بلا لقب. ولكن كلا العاشقين الساذجين كانا قد وقعا صريعين في حب الملكة "الهيلّنستية"؟! إن الشيطان هو الشيطان، لكن أين الواعون وأين المنتبهون؟! إنه قبل أمس كان حصانًا خشبيًّا أمام "طروادة"، والبارحة كان ماردًا قد التهم الغرب بحذافيره، واليوم هو تِنّين قد جثم على أنقاض الحضارة قاطبة.. تنين أطاح بكافة آمالنا وأخمد جميع حساسياتنا.

قد يبرز من بيننا من يقول: ما لنا ولاهتزاز الغرب وترنحه وسقوطه.. أنىّ لنقيق الضفادع أن يلوث الماء الصافي!.. لكن الأمر لم يكن كذلك أبدًا. إن الهزة التي وقعت هناك، دكّت ديارنا دكًّا، وجعلت عاليها سافلها. فانهدمت السدود، وانهارت الجسور، وتلاطمت الأمواج.. فضاع المسجد، وضاع المحراب معه.. ولم نستطع أن نبقى خارج هذه القيامة الحمراء.. ليتنا استطعنا أن نبقى خارجها. لم نستطع أن نقاوم تلك الدوامة الرهيبة بقيمنا التي عملنا على إنمائها وإنضاجها طوال قرون.. فكانت النتيجة أن ابتلعتنا. والمؤلم أن القاطع والطاحن والماضغ كانت هي أسناننا.

ثم انطلقنا نبكي سنين طويلة تائهين هائمين، وسالت عيوننا سيلاً وتدفقت كالشلالات تدفقًا.. بكينا على عمراننا الغابر وعلى مجدنا الضائع بكاء أيتام حُرِموا الأبَ والأم معًا. أبَى الصديقُ أن يدنو من الوفاء، وأبى العدوُّ أن يَشبَع من الجفاء.. كان الزمان مقطّبا عبوسًا وكنا مفلسين أيما إفلاس.. ومن ثم لم نبرح البكاء ليل نهار. وإذ قد خيّمت علينا غيومٌ من الأنين، وحاصرتنا لججٌ من النُّواح فرشنا همومنا على أعتاب الليالي وهتفنا متوجعين:

اغدُ يا وطن! وتلفع بسواد أستار الكعبةِ،
وامدُد ذراعًا إلى روضة النبي،
وامدد ذراعًا إلى كربلاء، إلى المشهدِ،
وابرُز للكائنات بهذه الهيئةِ... (نامق كمال)

هتفنا متألمين وعرضنا حالنا على ديوان سام رفعنا إليه شكوانا بالدموع والأنين. أجل، عقدنا رجاءنا على مالك الملك وصاحب مقاليد كل شيء.. وسعينا وراء آمال عالية علوّ المآذن رغم قصر طولنا وقزامة قاماتنا.. سعينا نترقب ذلك اليوم الذي يزأر فيه الأسد الجريح زئيرًا يدوي في الأرجاء قائلاً: "الويل لكم، تشتتوا".. آمنّا بنافخ الروح في آمالنا، ومانح القوة لأقدامنا.. آمنّا بأمتنا.. آمنّا بإنساننا. كنا نسمع أنغام التفاؤل في كل ريشة نضرب بها أوتارَ قلوبنا، ونرى أمام أعيننا تلألؤ الأنوار تحتفل بانبعاثنا.

الليالي حُبالى الصفاء والأكدار،
ليت شعري، أيُّ مولود يخرج من رحم الليل،
قبل أن يولد النهار... (رحمي)

هذا، وبينما كنا نصارع ألف دوامة ودوامة، إذا بأنوار الفجر قد بزغت في الآفاق تبتسم لأجيالنا. مع ذلك لم نكفّ عن البكاء.. بكينا البارحة على خرائب الديار، واليوم نبكي على تفتح الرياض بالأزهار.. نبكي أن قد تلاشت الغيوم العابسة.. وأخذت سماؤنا بعد أن جفت منها العيون تهطل بالأمطار.. وتضوعت روائح الربيع الشذيةُ في أرجاء أراضينا.. وهلل الكونُ والمكانُ بانبعاث جديد. إننا نبكي وقد رأينا أفراخًا تقفز هنا.. وبراعم قد لبست أزياءها هناك.. ونبكي على ألف أنين وأنين هنا.. وألف مخاض ومخاض هناك...

نحن غرباء العصر.. في أيادينا باقة من الورد.. عيوننا تُمِدّ الورد بقطرات من النّدَى.. نقف أمام باب من استعجل المجيء في قرّ الشتاء لِنزِفّ إليه البشارة الكبرى.. "ها هي الأزهار قد لبست أحزمتها، وتفتقت البذور عن سنابلها، وأبرزت الوردة غمّازاتها بدلال، وصدح البلبلُ بتغاريده الشجية، وغمرت بهجة الربيع كل مكان. إننا، إذ جئناك بأزهار تسببنا في ذبول بعض منها، وقد كانت بذورها تنبض بالحياة حين نثرتَها بيديك.. فنرجوك.. نرجوك ألا تَلُومنا ولا تؤاخذنا، إذ إن السلطان يجمُل به سلوكُ السلاطين، والعبد يليق به سلوك العبيد. نحن غرباء هذه الحقبة البئيسة.. عصفت بنا عواصف عاتية.. فلم نستطع أن نسمو إلى مراقي القلب وآفاق الروح، فيستقرّ على السكينة والصفاء قرارُنا.

مولاي، لا تحرِم عبدَك من عنايتك،
وامنحه رعاية من رعايتك... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

د. إياد حسين عبد الله*



التوحيد والتجريد في الفن الإسلامي

تجلت الحضارة الإسلامية في انطلاقتها، من منظور التوحيد في الرؤية الشمولية للكون والحياة، لتفصل بين الخالق وخلقه وما يقتضيه ذلك من تحقيق إرادة الخالق في الكون الذي يعمره الإنسان الأكثر مسؤولية في هذه الحياة.

ولما كان الإسلام هو جوهر الحضارة، وكان التوحيد هو جوهر الإسلام، فقد اشتمل هذا المنطق على كل القوانين الداخلية للأشياء في مستواها الدنيوي والأخروي، وجعلها في إطار وتسلسل منهجي دقيق ليجعل من التوحيد تصورًا عامًّا للحقيقة ومدركاتها.

فكان الخالق ﷻ يتجلى بصفاته التي تساعد المخلوق على إدراك تلك الصفات وإدراك إرادة الخالق في خلقه وملكوته، وكان القرآن الكريم معبرًا عن تلك الإرادة وسننها في الأرض، لأن هذه الأرض والعالم الذي أمامنا مجموعة لامتناهية من الأشياء، ومجموعة من الموضوعات التي تؤثث الكون وتجعل منه كيانًا قابلاً للإدراك والمعاينة والتغيير، وبالتالي اشتغال الكون كمستودع داخله سلسلة من الأشياء ينتج عبر ميكانيزماته الخاصة نمط إدراك هذه الأشياء.

وكان لمبدأ التوحيد -الجوهر الحضاري في الإسلام- أسلوب يحدد الشكل الذي تنتظم به المبادئ المكونة للحضارة في عملية التطبيق، ويحدد كذلك المبادئ نفسها التي تنتظم داخل الشكل بما ندعوه الآن بالمظهر والجوهر أو الشكل والمضمون.

لقد اتضحت فكرة التوحيد انطلاقًا من موقف الدين من الحياة والوجود في عرضيتهما، وبما يحويانه من إنسان وحيوان وطبيعة، إزاء جوهرية المطلق الذي هو الغيب ﷻ؛ المطلق الموجود في كل شيء: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾(البقرة:١١٥)، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣)، والعديد من الآيات الكريمة التي تؤكد عرضية الزمان والمكان، والوجود كعالم يشهد إزاء مطلقيته وجوهريته وأزليته وأبدية الله.

مبدأ الجمال

وأمام هذه العرضية، يفقد الموضوع قيمته الأساسية في العمل الفني الإسلامي، ويتحول إلى المبدأ مع قيمة الشكل بدلاً من الشكل والمضمون أو الموضوع. فالجمال في الفنون الإسلامية تميز بتفردها بتلك اللمسات الروحانية التي ترتاح إليها النفوس وتتماهى مع تعابيرها وتوريقاتها اللامتناهية، لتوحي بشعور الانتماء إلى عوالم كونية بعيدة تمد الروح القلقة فيها بسلامها وطمأنينتها، حتى اعتبرت الزخرفة نوعًا من الطقوس المقدسة، والمنمنمات تمثل لانهائية الحياة. يقول "مارسيه" في كتاب "الفن الإسلامي": "إن وحدة الرقشة

الجمال في الفنون الإسلامية تتميز بتفردها باللمسات الروحانية التي ترتاح إليها النفوس وتتماهى مع تعابيرها وتوريقاتها اللامتناهية، لتوحي بشعور الانتماء إلى عوالم كونية بعيدة تمد الروح القلقة فيها بسلامها وطمأنينتها.

الزخرفية بغير بداية أو نهاية، هي سرمدية استوحت قواعدها من القواعد الرياضية وتكرار الموضوع والرغبة في حل معادلة اللانهاية".

ويكشف لنا "ابن عربي" عن جوهر الفن الإسلامي بقوله: "الذات محجوبة بالصفات، والصفات محجوبة بالأفعال، والأفعال محجوبة بالأكوان والآثار، فمن تجلت عليه الصفات بارتفاع حجب الأفعال رضي وسلم، ومن تجلت عليه الصفات، فني في الوحدة فصار موحدًا مطلقًا. فتوحيد الأفعال مقدم على توحيد الصفات، وتوحيد الصفات مقدم على توحيد الذات" (الفتوحات المكية).

من هنا، تغيب الذات في الفن الإسلامي وتضمحل أمام عظمة الخالق، ولا تظهر إلا في سمات ذلك الفن الجمعي الذي يعيد عزفًا إسلاميًّا جماعيًّا، فيغيب الفنان المسلم بينما يتجلى الفن الإسلامي في أبهى صوره.

كما تنعكس صفة المطلق من خلال ذلك التكرار الذي لا ينتهي في انتشار الزخرفة باتجاهات متعددة لا تنتهي أو تتوقف، إنما تتوالد بصورة مستمرة. وهكذا ينمو الفن من نقطة واحدة تتراكم بنظامية هندسية رياضية، أو تتكرر حسب نظام كلي فتصير خطًّا، والخط يكون أشكالاً مربعة، دائرة، مخمسًا، مسدسًا، مسبعًا، مثمنًا... إلخ، ثم تدور هذه الأشكال حول مراكزها... إنها النقطة.

قواعد أساسية

الجانب الأسلوبي الذي يحدد علاقتنا بالفنون الإسلامية عمومًا والخط العربي خصوصًا، ينطلق من ثلاثة مبادئ أساسية هي: الوحدة والعقل والسعة.

فالوحدة في الفنون الإسلامية عملية انتظام في علاقات

داخلة مع مكونات تلك الفنون مهما اختلفت أساليبها ووسائلها، فكأن وحدتها الأسلوبية هي في حقيقتها، وحدة جوهر مع اختلاف جميع الأعراض. أما العقل فكان يؤكد على الحقيقة وفي الوقت نفسه على استمرار التناقضات والانفتاح وتقبل الدليل المخالف. فكان رفضه لمخالفة الحقيقة حماية له من الظن والذي يكون أحيانًا إثمًا: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾(الحجرات:١٢). ورفض المتناقضات كان اتفاقًا على مصدرية المعرفة اليقينية، أما اشتغال العقل فقد كان حماية للإنسان من الانغلاق.

وفي هذا الإطار تمتد فكرة التوحيد لتشمل المبادئ الأساسية في حياة الإنسان المسلم وتكون في وقت واحد مبدأ أخلاقيًّا وقيميًّا، واجتماعيًّا، وجماليًّا. وفي ذلك يقول "روجيه غارودي": "الفن الإسلامي كالعلم الإسلامي والحياة الاجتماعية الإسلامية والفلسفة الإسلامية، لا يمكن فهمها إلا من خلال مبدئها الأساسي وهو العقيدة الإسلامية".

المرئي واللامرئي

ولتأكيد الثوابت الشكلية والجوهرية الموزعة على محور الزمان والمكان في حياة الفنان المسلم، سنعيد تشكيل سلم إحالات داخلية في النسق الفكري الذي انتهى إليه الفن الإسلامي، والذي لا شك فيه أن في تنظيم تاريخه الجمالي وبنية خطابه المتماسك داخل صيرورته، ستساعدنا كثيرًا في قراءة الجانب المرئي منه، وتحرك فينا تلك الأصداء التي تكشف عن خطاباتها الجوهرية غير المرئية وهذا هو ديدن الفن الإسلامي في اكتشاف ذلك الجوهر، ومنحه ذلك الجسد المرئي، أي استقراء الجوهر الماورائي وإعادة تمثيل ذلك الجوهر.

ولما كان هذا الجوهر الماورائي إلهيًّا في طبيعته ومصدريته، فهو جدير بالتقديس والجلال والمهابة. وإذا كانت الفلسفات القديمة تبحث وتؤكد على ذلك الجمال الذي تدركه الحواس، فإن الإسلام يؤكد على ذلك الجوهر (الجمال الذي يدركه العقل) في محكم بيانه العظيم أو في تجسيده للإيمان والوفاء والتقوى والشجاعة والكرم.

واعتبر الإمام الغزالي أن ذلك الجمال المدرك بالعقل، تعجز الحواس -بحكم محدوديتها- عن إدراكه أو نقله إلى العقل، وإنما يدركه العقل مباشرة دون أن يكون للحواس فضل في ذلك، لأنه من المدركات الاعتبارية المؤثرة في النفس والوجدان.

الجمال الحسي والجمال العقلي

يتضح لنا أمران في إدراك الجمال في الإسلام: جمال حسي، وجمال عقلي. الأول يدركه البصر والآخر تدركه البصيرة. وكشف الإمام الغزالي عن عمق جمال البصيرة بقوله: "البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر"، "القلب (العقل) أشد إدراكًا من العين"، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار. ولذة القلب في إدراك الأمور الجليلة الإلهية أقوى وأمضى. وهكذا وحد الجوهر في الفن الإسلامي بين ذلك النسق في العلاقات الشكلية بين المفاهيم والأسباب التي أدت إلى ائتلافها أو اختلافها، ويصر ذلك النسق على الاكتمال في الرؤية بعد أن كانت كل الوقائع مستعصية على الانصياع. فالمدرك بالبصر والبصيرة، غير الملموس باليد أو البعيد المنال.

وهكذا تحرر الفن الإسلامي من الحضور العيني للوقائع البصرية. إنه فن يؤمن بالتوحيد ويشهد على الألوهية عندما يقضي الفنان المسلم بأن لا شيء في الطبيعة يحمل صورة الله أو يعبر عنه، أي أبعده عن طبيعته، وتأمل الفنان الموحد بأن عدم التعبير عن الله شيء، والتعبير عن عدم التعبير شيء آخر، أي أن استحالة التعبير عن إله، هي أسمى الأهداف الجمالية التي يمكن أن ينشدها: ﴿ليس كمِثْلِهِ شيءٌ﴾(الشورى:١١)، ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾(الأنعام:١٠٣).

ورأى الفنان المسلم الموحد أنه يمكن التعبير عن استحالة التعبير، وذلك بحمل ما يرى في بصيرته على الإيمان باللانهائية وهو المحال التعبير عنه فكان فن الخط والزخرفة والعمارة والكثير من منتجات الفن الإسلامي. وعند استحالة

التعبير في شكل هذه الفنون بعد تغير موضوعاتها، أيقن الفنان الموحد معنى من معاني التنزيه، لهذا كانت كل الفنون الإسلامية تسعى إلى تجاوز لغة الشكل والتقليد.

لغة الشكل وإيقاظ العين

وتتسم لغة الشكل بتجردها من القيم المادية بالطبيعة، فتتحول تلك القيم إلى خطوط وألوان مسطحة ومجردة من أي دلالة في العالم المنظور، بل تقود تلك الخطوط والألوان إلى نزعة صوفية تزهد بكل ما هو عاطفي أو حسي أو عرضي، حتى قيل في الخط بأنه "هندسة روحانية وإن ظهرت بآلة جسمانية" أو "الخط أصيل في الروح" و"الخط لسان اليد، ومطية الفكر أو العقل" كما أورده ابن النديم.

وتحمل لغة الشكل في الفن الإسلامي استعدادًا مبكرًا لإيقاظ لغة العين، لأن المدرك بالبصر والبصيرة، غير الملموس باليد أو البعيد المنال، ومحاولة قراءته بطريقة بنائية-تركيبية وبنسق يوضح العلاقة بين المفاهيم والأسباب التي أدت إلى ائتلافها أو اختلافها، لأنها عندما تتوجه أولاً للعين تتخذ منها طريقًا للوصول إلى الإنسان ككائن موحد.

وإيقاظ لغة العين يعني؛ أن يكون باستطاعتها أن تقرأ مضمون المستقيم والمنحني والمتحرك والثابت والمغلق والمفتوح وتجليات النقطة واكتمال الدائرة وكل النظام الحي الذي يحكم مسار العناصر، وبالتالي أن تقرأ لغة الشكل كمضمون. والسؤال الذي يقدمه الفن الإسلامي هو: كيف

تغيب الذات في الفن الإسلامي، وتضمحل أمام عظمة الخالق سبحانه، ولا تظهر إلا في سمات ذلك الفن الجمعي الذي يعيد عزفًا إسلاميًا جماعيًا، فيغيب الفنان المسلم بينما يتجلى الفن الإسلامي في أبهى صوره.

ترى؟ وليس: ماذا ترى؟

فقد شهد الفن الإسلامي منذ حضوره على كيفية الرؤية لا على موضوع الرؤية، وهو ما تسعى إليه اليوم المدارس الفنية الحديثة والمناهج الفكرية في التلقي والتأويل، سواء في الأدب أو الفن. فالعين إذن، هي القصد الأول سواء كانت في مجال القراءة أو التأمل أو التذوق أو الفهم... والعين هنا ليست أداة العقل أو المخيلة أو أداة الحس كما هي بالنسبة للكثير من الفنون، بل إنها الطرف الآخر المستقل الذي يمثل الإنسان ككل في عقله ومخيلته وحسه. ومفردات لغة العين من شكل وخط ومساحة وحدود ونظام، كالحروف التي تتألف من الكلمات والجمل والمصطلحات والرموز والإشارات والحركات... وذلك باقتدائها بنظام خاص يشكل



سر اللغة وجوهرها في الإصغاء لهذا النظام الذي يتحكم في الشكل وعناصره في قوانينه وعلاقاته وإمكاناته... وفي الإصغاء لمعنى تجلياته ومصدرها، يتم الفهم واللقاء بين المتأمل وبين الفن. فتحجب عندها اللغة والعين معًا ليقف الإنسان ككل متوحد أمام الشهادة التي يشهدها هذا الفن.

إننا إزاء فن لا يروى ولا يوصف ولا يعلق ولا يشرح... فقد غاب الموضوع عنه فتجرد من الفرح أو الحزن كما تجرد من الزمان أو المكان. فلا حاجة إذن للتواريخ والأماكن، بل تبرز الحاجة للعين التي تعرف كيف تقرأ تلك العناصر والخطوط والألوان في تلاقيها وتقاطعها وتنافرها وتناغمها كإشارة أو رمز أو نظام خفي.

وحدة الرؤية

وكنا فيما سبق قد شهدنا وحدة الرؤية في الفن الإسلامي ومصدرها، ويحضرنا قول لـ"تيتوس بوركهارت" بأن "الفن الإسلامي يستقي مكانته من التزاوج بين الحكمة والمهارة الحرفية"، وتبرز قيمة الإتقان هذا في الفن الإسلامي، كنوع من الإخلاص والإجادة في أداء العمل، وهي رؤية شمولية لحياة الإنسان في عبادته وفكره وحياته اليومية فضلاً عن فنه. لا شك أن مثل هذه الرؤية الفنية والتراث الخالد، مبنيان على البراعة والحكمة في كافة تجليات الفن الإسلامي.

ولمناقشة وحدة الرؤية في الفن الإسلامي، فإننا نعود إلى تفسير وحدة الفكرة لدى "بوركهارت" حيث يقول: "إن لدى الفنان المسلم ثلاث وسائل: "الهندسة" وهي تترجم النظام المكاني، و"الإيقاع" وهو يكشف النظام الزمني وكذلك في المكان على نحو غير مباشر، و"الضوء" بالنسبة للوجود المحدود وهو في حقيقة الأمر غير قابل للانقسام، وطبيعته لا تتغير بفعل انعكاساته على شكل ألوان، ولا تقل بفعل انعكاساته أو تدرجاته من النور إلى الظلمة".

وهذه الوسائل الثلاث تبدو بشكل نموذجي في الفنون الإسلامية في العمارة والزخرفة والخط، كما ألغى الإسلام الحدود الفاصلة بين الدين والحياة، وكان المسلم يبدأ بالبسملة عند شروعه القيام بأي عمل.

وقد يجدر بنا هنا التوقف عند الوسيلة الأولى (الهندسة)، أو ما يسمى بالعلاقات الهندسية في الفن العربي الإسلامي، ومن الضرورة هنا التمييز بين العلاقات الهندسية والعلاقات الرياضية.

لا شك أن القيم الجوهرية الماورائية التي تقف وراء الفنون الإسلامية، كان مصدرها منطقًا واحدًا.

وفي الخط العربي على الأقل، لم يكن للخطاط المسلم من وسيلة للكتابة والإتقان سوى يده وعقله وقلمه، ولم يكن يعتمد وسيلة قياس أو أداة، فكانت لغة العين سائدة كوسيلة تختزن الآلاف من الصور الجميلة المتقنة بحروف الخطاطين البارعين، لترتقي بهذه الصور إلى أعلى مستويات التهذيب والتجلي في الفكر، ثم تسعى يد الخطاط بالممارسة والتمرين، الوصول إلى طواعية اليد لإعادة تطبيق أجمل الصور الذهنية المحفوظة بالذاكرة عن أولئك الخطاطين الأوائل. هكذا توارث الخطاط روحية وجوهر القواعد دون أن يكون لكل زوايانا وترديداتنا ونسبنا أي حساب أو اعتبار.

إن عمل النسبة الذهبية في هذا النظام الدقيق بين الفنون الإسلامية، كانت تشكل مجموعة أنساق سيميائية وضمنية، وهي إشكالية لا يمكن أن تكون في حالة تقاطع مع الأنساق المعرفية وتداخل منظوماتها المصطلحية، أي إن الإشكالية يطرحها حضور النسق وغيابه وانطباقها على منتجات متعددة مع اختلاف مكان وزمان إنتاجها، أو يجعل الأشياء تنضوي ضمن أنساق تحدد لها شكل وجودها كحالات التشابه والتقابل والتطابق.

وفي إطار وتسلسل منهجي دقيق، يعاد اكتشاف القانون الداخلي لمفردات الفن الإسلامي والخط العربي بتلك الشبكة المتداخلة بين منظومة النظرة والفكرة واللغة، لتجعل الفن الإسلامي نظامًا يؤسس مكوناته المفهومية والمنهجية في الذاكرة الفنية والخطابية الجمالية.

لا شك أن خلف كل تقنية أو أسلوب ميتافيزيقي، يجب حصر معالمها لفهم تلك الرؤيا الماورائية للعمل الفني، من خلال الأرضية الثقافية والتاريخية لأشكال الخطوط العربية والفنون الإسلامية عمومًا.

وهنا يكشف الفن الإسلامي بناء ثوابته الشكلية الموزعة على محور الزمان والمكان، ويؤسس لسلم إحالات داخلية تنظم تاريخه وبنية خطابه المتماسك في صيرورة تعيد النسق الفكري إلى تلك النقطة الجوهرية التي ابتدأ منها الفن الإسلامي. ■

(*) عميد الكلية العلمية للتصميم - مسقط / عُمان.



ليلى محمد السبيعي*

الدواء بالبكاء

في معاني الكلمات الربانية تغرق الروح في بحار من نور، تسافر إلى علويتها متجردة من كل ما يشدها إلى هوى الدنيا وأهوائها.

لحظة صفاء واحدة تغرق فيها العيون الخاشعة بالدموع التي بكاها القلب حبًّا وخشية وإجلالاً لقدرة الله وعظمته، ولذلك استحقت أن تكون واحدة من العينين اللتين لا تمسهما النار، واستحق صاحبها أن يكرمه الله تعالى ويجعله واحدًا من السبعة الذين "يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله" في قول حبيب الله عليه الصلاة والسلام: "ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه" (رواه البخاري).

ليست العيون وحدها هي التي تفيض بالدموع... تفيض القلوب من خشية الله حتى تعانق عنان السماء حبًّا لله وشوقًا إليه وخشية منه وخجلاً من كل ما مضى من الدنيا وإن لم يكن من الكبائر. فالمؤمن يرى أصغر ذنوبه كجبل يوشك أن يسقط عليه.

حين تتوجع الروح طالبة مغفرة الله ورحمته الواسعة،

تفيض الدموع بحارًا لا يحدها إلا رحمة من الله تنزل لتستقر في القلب وتشعره بالأمان.

لماذا يغفل الإنسان عن هذا الدواء الروحي والجسدي الكبير الذي يشفي كل العلل ويجعله في اتصال مباشر مع رب السماوات والأرض وخالق الداء والدواء؟ لماذا تأخذه قسوة نفسه ليصنع حصارًا لدموعه؟ وكيف لا تسيل الدموع وهي تقرأ بخشوع كبير: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(يوسف:٩٠) وكأن الحياة كلها تدور بين تقوى وصبر... وكيف لا ينفطر القلب لكل الحنان وكل الرحمة التي تحملها كلمات الرحمن التي نزلت في أشد لحظات الكرب باعثة الأمان وهي تقول: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾(مريم:٢٥-٢٦).

حين تبكي العيون، تتشافى القلوب وتطهر الأرواح وتتحرر النفوس من قيود الحسد والرياء والكره والنفاق والغرور... ولا يبقى فيها غير الحب الكبير للخالق العظيم الذي منه ينشق كل حب لكل ما سواه، ويصير كل ما سواه طريقًا للوصول إلى رضاه.

حين تبكي العيون، تتشافى الأبدان من أسقامها... فكم حدثت من غرائب في شفاء للأمراض بالدموع الصادقة الخالصة، لأن صفاء الروح عند البكاء يمنح الجسد قوة عظمى لشفاء المرض، ولأن كلمات الله النورانية وعظمتها أكبر من الداء وإن استفحل.

حين تبكي عيون المؤمن بكاءً صادقًا خاشعًا لله محبًّا معترفًا بذنوبه؛ يحبه الله، وحين يحبه الله يصير هو سمعه الذي يسمع به فلا تخون الأذن أبدًا، وعينه التي يرى بها فلا تخون العين أبدًا، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها... وحين ذاك يصير المؤمن خيرًا يمشي على الأرض... وعندها يهديه الله نعمتين لا يهديهما إلا لمن أحب، لئن سأله ليعطينه ولئن استعاذ به ليعيذنه.

اللهم إنا نسألك قلبًا خاشعًا وعينًا لك باكية خالصة لوجهك الكريم صفاءً ونقاءً وشفاءً... واقبلها منا برحمتك وجودك يا أكرم الأكرمين. ■

(*) كاتبة وأديبة مغربية.



مخاطر وبراءة

من حولك صراعات،
وإرادات متقاتلات...
والكُلُّ يصرُخ، والكُلُّ يَضِجُّ..
وأنتِ حالمةٌ كالزهر،
طاهرةٌ كالنَّدى، عبقةٌ كالشّذى..
وكصفاء الجدول الرقراق مشاعركِ،
وكالآفاق الوردية أحلامكِ...

* * *

د. عبد الإله بن مصباح*



الإنسان والبناء الحضاري

تعد البيئة الصالحة أساس البناء الحضاري، ومن تمام صلاح البيئة سلامة مكوناتها.. وعلى رأس هذه المكونات الإنسانُ. وبما أن البناء الحضاري عمَدُه الإنسان الكامل، جاءت الشرائع السماوية في كل فترة، مستنهضة في الإنسان همة الكمال، فجعلت له الكون -وضمنَه البيئات الطبيعية التي هي معاشه- مرجعًا تجريبيًّا لتأسيس النماذج التفسيرية الموصلة إلى إدراك حقيقة هذا الكمال.

فالبيئة الصالحة هي التي تصون الكائن وتحفظه من التيارات الجارفة والرياح الذارية التي من شأنها أن تقتلع نبتته قبل أن يشتد عودُه. فهي إذن، تحمي الكائن من كل المؤثرات الوافدة عليه من هنا وهناك، وتهيئ له محيطًا سليمًا مستقرًّا متوازنًا يخوِّله بناءَ ذاته بناء سويًّا في معزل عن كل ما يعوق تأهيله لمواجهة التحديات.

البناء الحضاري والبيئة

وعليه فالبيئة شكلت في البناء الحضاري عبر العصور، نسقًا طبيعيًّا منسجمًا مع سنن الكون في بناء الكمال الإنساني. وكل بناء حادَ عن هذا الانسجام، حُكم عليه بالفناء لانعدام الأرضية المزودة له بقوة الإنبات. فكان دأب الحضارات عبر التاريخ، البحثَ عن بناء الشخص المؤهل وفقًا لهذا المنظور الكوني

وبالنمط الذي يتماشى مع الأسلوب الذاتي لكل حضارة ومع نظامها الاعتقادي، إلى أن جاء الإسلام بنظرته الشمولية لأبعاد الكون التي ارتقت بالإنسان من التأهيل النمطي إلى الكمال الفطري. فكان ذلك إيذانًا بانفتاح الإنسان على مقومات الطبيعة الراقية وطلبه سبر أغوارها لفهم أسرارها، تلك الأسرار التي ما قامت المشاريع الحضارية المتقدمة إلا على محاكاة نماذجها.

ومن هذه النماذج المستوحاة من البيئات الطبيعية، ما لمستُه في معايناتي الميدانية من دلالات بخصوص تطابق أنماط عيش الكائنات الطبيعية مع أنواع السلوكات البشرية. وهي النماذج التي إن استعرضتُها في هذا المقال، فلإظهار ما تنطوي عليه حقائقها من غايات وأسرار إذا استساغها العاقل وجدها مفاتح لأغلاق صرفت الإنسان -وما تزال- عن حقيقة ما يجب أن يبحث عنه، وهي صفة الكمال التي من أجلها خُلق.

يقول ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله- في إحدى حكمه: "ادفن وجودك في أرض الخمول.. فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه".[1] وهي حكمة بليغة قصد منها ابن عطاء الله بالخمول؛ ليس خمول النفس الذي قد يفهم منه خلودها إلى الأرض وتقاعسها وتكاسلها عن العمل، بل خمول الأرض التي يدفن فيها الإنسان وجودَه. فهذا يعني أن الإنسان حتى يشتد عوده وينضج فكره، لابد له من أن ينأى بنفسه عن الأضواء وعن الضوضاء والإثارات إلى الأوساط الخاملة التي يشملها الهدوء وتحفها السكينة.. كمثل البذرة التي تريد غرسها لابد -لكي تضمن نتاجها- من أن تبحث لها عن أرض خاملة تزرعها فيها، وهي الأرض الهامدة الساكنة البعيدة عن السيول الجارفة وعن الرياح الذارية التي من شأنها أن تُعري التربة وتجتث النبتة فتلقي بها في متاهات كل ما ليس له قرار.

وعليه فالخمول المقصود في الحكمة ليس خمول الذات، ولكن خمول الوسط الذي سيحضنها فيهيئ لها بسكونه وقراره تفتح القريحة وسعة الفكر، فتنضج بذلك ثمرة المعرفة وتتألق قطوفها يافعة طيبة في كل حين بإذن ربها. وهو ما نجد أشراطه بادية في نمط العيش الذي تلجأ إليه كثير من الكائنات الحية في مختلف البيئات الطبيعية.

فبصرف النظر عن الكائنات الطائرة أو السابحة أو الجارية التي ليس لها قرار، فإن هذا النمط من العيش -عيش الاندفان في الأوساط الخاملة- يصير ضروريًّا عند الكائنات التي ترتبط على الدوام بحيّز عيشها، وخاصة تلك التي تتميز بحساسية عالية تجاه المتغيرات الطبيعية الآتية من الأوساط المحيطة بها. فهذه تضطر أن تدفن نفسها في باطن التراب أو أن تتخذ استراتيجيات وقائية لتحافظ على بقائها وتضمن استمرار نتاجها. ومن أهم الكائنات دلالة على هذا المعنى، نجد اللؤلؤ والمرجان كأسمى تعبير عن هذا النمط من العيش المترجم لسر من أهم أسرار التألق في هذا الوجود.

أثر الخمول والاندفان على تألق اللؤلؤ والمرجان

يعد اللؤلؤ والمرجان من أنفس الحلي والمجوهرات التي عظمها الإنسان، بل وذكرها الله تعالى في كتابه العزيز واصفًا بها محاسن الجنان. فهذه النفائس التي نالت قيمتها العالية من نذرتها وجمال منظرها تُستخرج من أعماق البحر، حيث تتكون في ظروف جد دقيقة وتحت شروط بالغة التعقيد. فهي تنتج عن تكثفات معدنية من أصول حيوانية تتصلب فيها المكونات الكيميائية بفعل تماسك جزيئات معدنية ناتجة عن تفاعل كلسي لا يتم إلا إذا توفرت شروط فيزيائية وكيميائية وحيوانية ترتبط أساسًا بالاستقرار الطبيعي للوسط البحري الذي تتكون فيه.

فاللؤلؤ لكي ينشأ في الصدف البحري، يجب أن يتبلور انطلاقًا من أكسيد كربون الكالسيوم الذي يفرزه المحار حول حبة دخيلة عليه يعزلها في زاوية بين صدفتيه. ونحن نعرف أن هذا الصدف لا يمكن له أن يستقر في قاع البحر، إلا إذا وجد مستندًا ثابتًا يرتكز عليه كسطح صلب أو دعامة راسية يتعلق بها، ولا يمكنه أن يثبت على الأتربة المتحركة كالطين أو الرمل. وهكذا فاللؤلؤة هي حبة تتبلور دفينة في الصدفة الثابتة، حيث تتحول بفعل التأثيرات الكيميائية والحيوانية القارة لتصير جوهرة نفيسة متلألئة.

أما المرجان فهو هيكل حيواني لا ينمو دفينًا في جسم آخر، ولكن على سطح حجري تماسك بفعل تكثفات عضوية لحيوانات عاشت دفينة فيه ثم ماتت وأقبرت فيه. فهو أيضًا إفراز معدني من أصل حيواني يحصل في قاع البحر تحت ظروف قارة ينتج عنها تكوّن المرجان في شكل شعب رصيفية تزدهر في البحار الدافئة والهادئة مشكلة بذلك حواجز ساحلية في المياه الضحلة أو جزرًا مرتفعة في البحار

العميقة. وتتم العملية وفق تسلسل مرحلي يضمن تهيؤ الأرضية الصالحة لنمو واستقرار الكائنات حتى يتسنى إقامة النصب المرجاني. وهذه المراحل تبدأ بعملية تثبيت القاع عن طريق تماسك حباته بواسطة إفرازات كائنات مختلفة تعيش دفينة بين هذه الحبات، فتساهم خلال حياتها وكذلك بعد موتها في مسك المكونات الرسوبية لقاع البحر. وبالتحام هذه التوضعات تتصلب الأرضية وتصير صالحة لتثبيت جذور الباقات المرجانية التي ستنمو عليها. ثم تأتي مرحلة التألق التي تنتهي في أزهى حللها بنصب مرجاني على سطح متراص هيأه تواجد الكائنات الدفينة فيه، التي لمّت شتات رواسبه وأدمجتها لإقامة البناء.

بيئة اللؤلؤ والمرجان

فهذان العنصران (اللؤلؤ والمرجان) لا يمكن لهما أن ينموا في الأوساط البحرية المضطربة بفعل التأثيرات الخارجية التي تؤجج التيارات وتحدث التغيرات، لأنهما يتطلبان درجة عالية من الاستقرار في مكونات الوسط البحري حتى يتواجدا فيه. أما تلك الأوساط البحرية غير المستقرة، التي تشهد كثرة التغيرات في عواملها الفيزيائية والكيميائية كالمناطق الساحلية التي تلتقي فيها البحار مع الأنهار أو مع المؤثرات القارية الأخرى، فلا تجد فيها سوى الكائنات الدفينة التي تعيش داخل مسالك تحفرها في عمق الرواسب حتى تحتمي من الاضطرابات التي تفد على وسطها من هنا وهناك.

وهذا ما عاينتُه عن قرب في إحدى بيئات المروج التي تلتقي فيها مياه البحر المالحة مع مياه البر العذبة، حيث لاحظتُ أن عيش الاندفان (Endobenthique) يكاد يكون هناك هو السائد.[٢] فلجوء الكائن إلى دفن ذاته، يصير إلزاميًا في مثل هذه الأوساط حتى يمكن له أن يضمن استقراره. ولعل هذا النمط من العيش، هو ما يمكّن الكائنات من التأقلم أكثر مع التغيرات التي تطبع هذه الأماكن المضطربة من جراء خضوعها لتأثيرات البحر والبر. فهناك تتداخل التأثيرات البحرية مع البرية فتعطي تقلبات ينجم عنها اضطرابات في مكونات ذلك الوسط. الشيء الذي ينعكس سلبًا على استقرار كائناته الحية التي باندفانها في عمق الرواسب تحمي نفسها من التيارات المائية التي يمكن أن تقتلعها، كما أنها تحتفظ بدرجة ملوحة قارة وكذلك بحرارة متوسطة. وهذا هو السر في لجوء الكائنات في مثل هذه البيئات الصعبة إلى دفن ذاتها، والسر كذلك في انعدام أي شكل من أشكال التألق للكائنات التي من شأنها أن تنتصب فوق سطح الثرى.

لا يمكن لأمة أن تبني حضارتها على نماذج مستوردة لا يعبر فيها الإنسان عن عمق ذاته تمامًا، كما لا يمكن للبحر أن يُعطي الحياة من الأمواج السطحية، لأنها لا تحمل إلا الزبد الغثاء الذي تحركه الرياح الآتية من كل جهة.

وعلى هذا الأساس، فالأوساط التي تطبع خصائصَها التقلبات لا يمكن لها أن تحتضن اللؤلؤ والمرجان، بل ونجد المرجان حتى في الظروف الملائمة، يتخذ تأقلمات تضمن له حماية أكثر ضد أي طارئ محتمل. وهذا ما أدركتُه في مجال دراسة ميدانية قمتُ بها لمرجان رصيفي متحجر، في إطار إعادة تقويم الحالة التي كانت عليها بيئة سفوح الريف الجنوبية بالمغرب خلال العصر الجوراسي الأوسط (أي قبل حوالي ١٢٥ مليون سنة). ففي هذه المعاينة وجدتُ أن الرصيف المرجاني تكوّن من شعبة مرجانية مركزية مؤلفة من باقات كثيفة وباسقة كانت محاطة بأنواع مرجانية مصفحة (Polypiers Lamellaires) في شكل حزام واقي يلتف حول الشعبة المركزية.

وهذا دلني لما تعرفت على خصائص كل جزء من هذا الرصيف، على أن البناء المرجاني ابتدأ بإقامة نصب مركزي نمت فيه الأغصان في تشعبات باسقة. إلا أن تكاثر هذه الأغصان حتّم على الحيز المرجاني، تكوين سياج وقائي لحجب الكتلة المركزية عن التيارات المائية الجانبية، وعن التدفقات الرسوبية التي من شأنها أن تكسر الأغصان وتطمر الأجسام المرجانية. وهكذا باصطدامها مع هذه الأنواع المصفحة من المرجان التي تتكاثر على الجوانب، تتكسر التدفقات الإعصارية وتفقد قوتها فلا تؤذي الباقات المركزية.

بالإضافة إلى هذه الأصناف من المجوهرات، نجد أن الماس -الذي هو أنفسها- هو أيضًا تركيبة معدنية من ذرات



الكربـون، لا يتكـون إلا إذا تمـت عملية اندمـاج ذراته تحت ضغط عالٍ يصل إلى خمسـين كيلوبار، أي ما يعادل خمسـين ألـف مـرة، الضغـط الموجـود علـى سـطح الأرض. وهـذا الضغـط الشـديد لا يتوفـر إلا في أعمـاق الأرض تحت ١٢٠ إلى ١٥٠ كلم من السـطح، مما يعني أن الماس بدوره -لكي يتكـون فـي المناجم- يجـب أن تتبلور ذراتـه دفينة تحت كل هذا السـمك الهائل من الصخور، وهو ما يفسـر كون الماس غالبًا ما يستخرج من أنقاض القارات المتقادمة (Cratons) التي تكونـت فـي هذه الأعمـاق من الأرض، ثم بـرزت مع الزمان على ظهرها بفعل عمليات التعرية.

وهكـذا فما اسـتقيته مـن دلالات هذه الأنماط المعيشـية للكائنـات الطبيعيـة، إنمـا ينبع مـن محاولتي تقريـب القارئ مـن حقيقـة النمـوذج المثالي الـذي أقره الله تعالـى على هذه البسـيطة حتـى يضمن اسـتقرار كائناتها وحسـن نتاجها. فلئن كان اللؤلـؤ ينمـو مختبئًـا داخل صدف المحـار في معزل عن متغيرات المكان، والمرجان يتكاثر وينبسـط باسقًا على سطح متراص هيأت أرضيتَه الكائنات الدفينة التي شدّت بنيانه حتى ينتصب عليه المرجان ثم يُلف في وسط سياجه الواقي من كل مؤثـرات المـكان، وكان الماس لا ينضـج إلا دفينًا في أعماق الأرض، فذلـك لأن مرحلة التألق والازدهار لابد أن تسـبقها مرحلة التأسيس والاستقرار.

الاندفان

وهذا هو شـأن كل كائن حي موجود على ظهر هذه البسـيطة من النبات إلى الحيوان إلى الإنسـان.. لابد لكي تتألق معالمه مـن أن يمـر بمرحلـة الاندفان التـي فيها تتم عملية التأسـيس لبنـاء الذات.. وذلك مفهوم البنيان الحضاري، فهو متماسـك بعمل أفراده كما تماسـك الثرى بفعل إفرازات سـاكنته الدفينة فيه، التي -كما رأينا- هيّأته لصالح الإنبات. فإذا توقفت حياة الإنسـان بقيت أعماله الصالحة حيـة يُنتفع بها، تمامًا كما كان يُرجـى نفعهـا لغيره فـي حياته. فهـي بمثابة ذلـك البناء الذي شـيّدته تلـك الكائنات التي دفنت نفسـها فـي أرض الخمول ليقـوم علـى أنقاضها صرح التألق والقبـول. وكما أن صاحب تلـك الأعمـال يبقى مُثابًا عليها ما دام نفعها سـاريًا على غرار الصـرح المشـيد الذي يبقى قائـم البنيان، فكذلـك غيره ممن

سيأتي بعده يظل منتفعًا بها معترفًا بفضل من سنّها فيستقي منها ويدعو لصاحبها.

وذلك مدلول صيرورة الأعمال في البناء الحضاري. فهي كالبذرة الطيبة التي دُفنت في التربة الطيبة عطاءها لا يبلى ونتاجها لا يفنى.. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها الذي بارك في غرسها بأن جعله ثابتًا في الأرض وفي ينعها بأن جعله باسقًا في السماء.

وهذا ما رأيته قد تجلى -من زوايا كثيرة- في العرض القيم للأستاذ نوزاد صواش (المشرف العام لمجلة حراء) عن سر التجربة التركية الذي قدمه تحت عنوان "المعرفة سر الأمواج الصاعدة من القاع في التغيير الحضاري" في المغرب في جامعة ابن طفيل، حيث بيّن بنعومة أسلوبه، كيف ركزت التجربة التركية على محور العمل التربوي في صناعة إنسان القيم والانفتاح والتسامح الذي هو أساس البناء الحضاري، وكيف أن التغيير لا يأتي إلا من العمق الداخلي لهذا الإنسان، كشأن البحر لا يتغير إلا بالتيارات الصاعدة من عمقه. أما التيارات والأمواج السطحية الآتية من هنا وهناك، فلا تُغيّر لأنها من صناعة الرياح التي تهب من كل مكان.

وهذه نظرة عميقة لسر التغيير أراها تتلاقى مع ما سبق أن قدمناه بخصوص مضمون حكمة ابن عطاء الله، حيث ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). فإذا لم ينطلق التغيير من الكيان الداخلي للإنسان الذي هو قلبه واعتمد فقط على ما يأتي من الخارج، فسيجد الإنسان نفسه في مهب الرياح التي ستجعله يدور في فلك غيره فيهيم بذلك في متاهاتٍ تُبعِّده عن النظام العام الذي أقره الله تعالى لهذا الكون، والذي يقول في حقه سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٤٠)؛ فلا الشمس ينبغي لها أن تسبح في فلك الأرض ولا الأرض في فلك القمر، بل لكلٍّ فلكٌ يجب أن لا يحيد عنه. فإذا سبح الإنسان في فلك غيره فإنه لن يدور أبدًا في فلكه، وبالتالي كل ما سيظهر عليه، إنما هو من تجليات غيره وليس من عمق كيانه، لأنه كما أجمل ذلك العارف بالله أحمد بن عجيبة رحمه الله: "لكلٍّ قيض الله كنزًا، لكن ما دُمتَ متكلاً على الحفر في كنز غيرك، فلن تحفر أبدًا على كنزك".[٣] ومن ثم، فمن كان على هذه الشاكلة فلا خيرَ يرجى منه في بناء حضارة الأمة كما قال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "ولا خير في ود امرئ متلون" (إذا الريح مالت مال حيث تميل).

إذ لا يمكن لأمة أن تبني حضارتها على نماذج مستوردة لا يعبر فيها الإنسان عن عمق ذاته تمامًا، كما لا يمكن للبحر أن يُعطي الحياة من الأمواج السطحية، لأنها لا تحمل إلا الزبد الغثاء الذي تحركه الرياح الآتية من كل جهة كما قال ربنا ﷻ: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾(الرعد:١٧). أما التغير الصحيح النافع الذي هو أساس البناء الحضاري، فلا تأتي به إلا أمواج القاع التي تُصعِّد معادن الحياة الراكدة في عمق البحر، كما نجد الإشارة إلى ذلك واردة في قوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(الرعد:١٧). تلك الأرض التي إن خَمُلت فلأجل أن يمكُث فيها هذا الذي ينفع الناس، حتى إذا نبتت من معدنها تلك النبتة الصالحة تبلورت ونمت فكان عطاؤها طيبًا. فإذا تحققَت هذه الرؤية وتمّت على أرض الواقع، فلابد للبناء أن يقوم من تلقاء نفسه فتحًا من الله ونصرًا من عنده. وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الصف:١٣). ■

إذا لم ينطلق التغيير من الكيان الداخلي للإنسان الذي هو قلبه واعتمد فقط على ما يأتي من الخارج، فسيجد الإنسان نفسه في مهب الرياح التي ستجعله يدور في فلك غيره فيهيم بذلك في متاهاتٍ تُبعِّده عن النظام العام الذي أقره الله تعالى لهذا الكون.

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش:

(١) الحكم العطائية، شرح وتحليل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي. طبعة دار الفكر المعاصر، ٢٠٠١، بيروت، لبنان، ج: ١، ص:١٥٦-١٦٦.

(٢) عبد الإله بن مصباح (٢٠٠٦)، مرج المياه بين الكشف العلمي والوصف القرآني، مجلة الفرقان، الأردن، عدد:٥٥، رجب ١٤٢٧، ص:١٢-١٥.

(٣) إبعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم، للعارف بالله أحمد بن عجيبة الحسني (ت ١٢٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩، بيروت.



د. أحمد حجازي *

الإعجاز العلمي في النحل والعسل

في حياتنا المعاصرة، تحيط بالإنسان العديد من الملوثات، سواء كانت ميكروبية (الفيروسات والبكتيريا والفطريات والطفيليات) أو غير ميكروبية (المبيدات الحشرية ومكسبات الطعم والرائحة وعوادم السيارات وما بها من رصاص والمواد المشعة والمؤينة)، وتحدث كل هذه الملوثات أثرًا مثبطًا للجهاز المناعي الذي خلقة الله ووزعه على الجسم بطريقة إستراتيجية لكي يحمي الجسم من الملوثات.

وفي المقابل، يلعب الغذاء دورًا هامًّا في رفع الحالة المناعية لجسم الإنسان. ومن أهم عناصر الغذاء؛ المواد البروتينية، حيث يأخذ منها الجسم ما يحتاجة لإعادة تجديد الخلايا والأنسجة التالفة، وأيضًا لتكوين الأجسام المناعية التي تحمي الجسم.

ويحتاج الجسم للعديد من المواد سواء كانت غذائية أو علاجية لزيادة كفاءته وفاعليته، وكلما كانت هذة المواد ذات منشأ طبيعي، فإنها لا تحدث لجسم الكائن الحي أية أضرار. ومن نعم الخالق علينا أنه خلق للإنسان مصادر طبيعية متعددة لكي يتناولها، وفي مقدمة هذه المواد، عسل النحل ومنتجات النحل. ولقد كرم الله النحل دون سواه من الحشرات، حيث خصص سورة باسمه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل:٦٨-٦٩).

إنه لمن عظمة الخالق أن يخرج من بطون النحل عددًا من المواد؛ منها العسل وصمغ العسل المعروف بـ"البروبيليس"

وغـذاء الملـكات المعروف بـ"الشـهد الملكي" وسـم النحل والشـمع، كما يجمع النحل حبوب اللقاح ويخلطها بالعسـل ليكـون مـادة غذائيـة عاليـة القيمـة. وكل يـوم يبرهـن العلم الحديث بالدليل القاطع، على عظمة القرآن الكريم وما به من آيـات للإعجاز ليقف عليها أولـو الألباب، ومن هذه الآيات؛ الفوائد الجمة لمنتجات النحل التي يكتشف المزيد منها يومًا بعد يوم.

بديع صنع الله

والنحل أمة دؤوبة في عملها، حيث تقطع شغالة النحل مسافة ثمانيـة كيلومتـرات لتجمع الرحيق، ناهيـك بما يحدث داخل الخليـة مـن أعمـال كثيرة مـن تربية لصغـار النحـل وتنظيف الخلية وحراسة وخلافة، كما أن النحل طيب أكله حيث يجمع رحيـق الأزهـار والعصـارات من الزهـور وبراعم الأشـجار. ولقـد خلق الله هـذه المملكة الحشـرية، المتميـزة في نظامها وحركتهـا وتعاونهـا مـع زملائهـا فكانت آية مـن آيات خلق المولـى تنطق ببديع صنعه. فالنظـام التعاوني الفريد والحركة الدائمة والدؤوب لأفراد هذه الأمة، والتي لا تعرف الكسل أو الملل، من الدقة بمكان أن الأعباء والمهام تتوزع فيه حسـب قدرة كل فرد فيها؛ فمنها ما هو مكلف بالدفاع، ويستميت في تأدية واجبه في سـبيل الوطن الذي يقطن فيه، تلك هي طائفة نحل العسـل التي كرمها المولى ﷻ. كما يمتاز هذا المجتمع بالنظـام والنظافـة التامة، حيـث لا يترك النحل فـي خليته أيّ أقذار أو أوساخ... وكل هذه التفاصيل تدعونا إلى أخذ النحل قدوة لنا فنصبح في عملنا كتلة نشاط وحيوية لإسعاد أوطاننا. ولـن يسـعنا المقام في ذكر كل شـيء عن النحـل الذي كرمه الحق ﷺ، لذلك حثنا رسـول الله ﷺ على أن يتمثل المؤمن به حيـث قال: "مثـل المؤمن مثل النحلـة، إن أكلت أكلت طيبًا، وإن وضعـت وضعت طيبًا" (رواه البيهقي). ولقد اسـتخدم قدماء المصريين العسـل ومنتجـات النحل في العلاجـات وأدوات التجميل، كما أسـتخدمها الكهنة في عمليات التحنيط وحفظ الجثث. والعسل كمادة فعالة دوائية استجلاها العلم الحديث والطب فيما كان النبي ﷺ سـبّاقًا إلى اسـتخدام العسـل، سواء فـي العـلاج أو في حفظ الصحـة؛ حيث كان ﷺ يشـربه على الريق، وفي هذه السنة النبوية الحميدة فائدة عظيمة لما له من سر بديع لحفظ الصحة.



رسول الله كان سبّاقًا

ولعل ما نراه اليوم من مستحضرات للتجميل تحتوي تركيباتها على العسـل، وكذلك من أدوية تسـتخرج مكوناتها من خلية النحل وتسهم في رفع الحالة المناعية للجسم، وزيادة القدرة علـى التركيز، وإعادة الحيوية والشـباب، لخير دليل على هذا البعد "الاسـتباقي" للنبي ﷺ الذي أشـار إلى فوائد العسل قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان.

ولأهمية منتجات النحل من الناحية الطبية، ذكر في السـنه النبوية المطهرة؛ ففي سـنن ابن ماجـة مرفوعًا من حديث أبي هريرة ﷺ: "من لعق العسـل ثلاث غدوات كل شـهر لم يصبة عظيم من البلاء"، كما ورد أيضًا: "عليكم بالشـفاءين: العسـل والقرآن" (رواه ابن ماجة). كما أنه ﷺ من حبه للعسـل وما فيه من فوائد، فإنه كان يهدى إليه العسل، ويستدل على ذلك حديث جابر بن عبد الله قال: أهدي للنبي ﷺ عسـلا تقسـم بيننا لعقة لعقـة، وأخـذت لعقتـي، ثم قلت يـا رسـول الله أزداد أخرى؟ فقـال: "نعم". وكما ورد فـي الصحيحين: عن عاصم بن عمر بن قتادة قال: سـمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سـمعت النبـى ﷺ يقول: "إن كان في شـيء مـن أدويتكم؛ أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم؛ أو شربة عسـل؛ أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي". ولقد





روي موقوفًا عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه: لا يشكو قرحة ولا شيئًا إلا جعل عليه عسلاً حتى الدمل. وعن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال الرسول: "اسقه عسلاً" فسقاه، ثم جاءه فقال: إني سقيته عسلاً فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة فقال: "اسقه عسلًا"، فقال: لقد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال ﷺ: "صدق الله وكذب بطن أخيك" فسقاه فبرأ. وكذلك عندما عرب بطن الشاكي لرسول الله، أي أصابه الإمساك، كان العلاج أيضًا بالعسل.

وظهرت فوائد منتجات نحل العسل من خلال الأبحاث العلمية الحديثة، وأيضًا النتائج المتحصل عليها من خلال الأبحاث التي قد قمتُ بإجرائها على منتجات نحل العسل وخاصة مادة البروبوليس. ومادة البروبوليس هي مادة حمضية لزجة قابلة للذوبان في بعض المذيبات العضوية والكحول، حيث تقوم شغالة النحل بجمعها من البراعم العليا وقلف الأشجار، وتقوم بإفرازها في الخلية كي تبطن بها العيون السداسية التي تضع بها العسل أو البيض، كما يستخدمها النحل في تقوية الأقراص الشمعية، وسد الشقوق، وتقوية الخلية، وتضييق بابها في الشتاء، كما تعد هذه المادة بمثابة الجهاز المناعي الفطري لخلية النحل، حيث تستخدم أيضًا في تغليف وتغطية الأعداء الذين ينفذون إلى الخلية بعد قتلها بمعرفة الحراس؛ وهؤلاء الأعداء دائمًا ما يكونون أكبر حجمًا لا يستطيع النحل التخلص منهم خارج الخلية، مثل الفئران والسحالي والفراشات.. وتغليف الأعداء بواسطة البروبوليس يمنع حدوث التعفن بالخلية؛ حيث أثبتت البحوث بالفعل، أن هذه المادة لها الخاصية المضادة للفيروسات والبكتيريا والفطريات علاوة على كونها منشطًا يزيد من كفاءة الجهاز المناعي.

أعلى كفاءة للجهاز المناعي

ولقد أجريت في المركز القومي للبحوث في القاهرة، عدد من الأبحاث العلمية الأخرى التي تناولت أهمية منتجات النحل، ومنها بحث درس تأثير صمغ النحل على الحالة المناعية للكتاكيت، حيث أسفرت النتائج عن زيادة في وزن الكتاكيت المعاملة بصمغ النحل بعد أسبوع، كما سجلت زيادة في وزن الغدة التيموثية بعد ١٤ يومًا من المعاملة حتى نهاية التجربة فضلاً عن زيادة طفيفة في الطحال، فيما سجلت اللوزات الأعورية وحوصلة فابريكس زيادة ملحوظة في الأسبوعين الآخرين من تجربة الكتاكيت المعاملة بصمغ النحل.

ولقد بان واضحًا أن أعلى نشاط لكفاءة الخلايا الأكولة للكتاكيت سجل في اليوم الرابع عشر من المعاملة، وكذلك تم رصد زيادة في معدل نشاط الخلايا الليمفاوية المتحورة للكتاكيت المعاملة بصمغ النحل المصري.

وأجريت دراسة ثانية حول تأثير صمغ النحل المصري الذي جمع من خلايا النحل، بالقرب من مدينة المنصورة في فترة الصيف، حيث استخلصت المواد الفعالة ودرست بكروماتوجرافيا الغاز وطيف الكتلة على الحالة المناعية للكتاكيت المحصنة بلقاح النيوكاسل، وأيضًا التغيرات التي تحدث في وزن الكتاكيت ووزن الأعضاء الليمفاوية. وأسفرت النتائج عن نتائج مشابهة للدراسة الأولى، حيث أظهرت بوجه عام زيادة في وزن الكتاكيت المحصنة والمعاملة بصمغ النحل.

ومن نتائج هاتين الدراستين يمكن القول، بأن صمغ النحل المصري أظهر كفاءة لرفع الحالة المناعية للكتاكيت المحصنة بالنيوكاسل، وأنه يمكن استخدام الصمغ كمنشط

مناعي غير نوعي لرفع الحالة المناعية.

وفي دراسة أخرى، استهدفت معرفة تأثير صمغ النحل (البروبوليس) على السلالات اللقاحية المختلفة لفيروس مرض النيوكاسل والفيروس الضاري، فتبين أن إضافة صمغ النحل (٣٠٠ مجم/مللتر) بتخفيفات عشرية إلى فيروس النيوكاسل، أدى إلى تناقص ملحوظ في المتوسط المعياري لإمكانية حدوث العدوى بعد حقنة في الأغشية الجنينية لأجنة البيض المخصب. كما استخدم اختبار التلزن المباشر على الشريحة لقياس تواجد الفيروس بالسائل الجنيني، وأسفرت النتائج أن ١٠٠/١ من تركيز صمغ النحل قد أحدثت أقل جرعة مميتة لأجنة البيض مع أقل تغير للسائل الجنيني. وكان التأثير واضحًا جدًّا في المتوسط المعياري لإمكانية حدوث العدوى على لقاحات لاسوتا وكولون (-٣٠) وكذلك للفيروس الضاري.

وتقدم هذه النتائج معلومات جديدة عن نشاط البروبوليس كمادة مضادة لفيروس مرض النيوكاسل، وتشير أيضًا إلى أهمية هذا المنتج الطبيعي وإمكانية تطبيقة كعقار مضاد لفيروس مرض النيوكاسل، مما يفتح مجالاً لدراسة هذه المادة كمضاد فيروسي لعدد من الفيروسات الأخرى التي تصيب الإنسان.

كما أن تأثير بعض منتجات النحل على الاستجابة المناعية للكتاكيت المصابة بفيروس النيوكاسل الضاري، أظهرت نقصان معدل الوفيات في هذه الكتاكيت بعد معالجتها بصمغ النحل والعسل.

أثر مخفض لمستوى السكر بالدم

وأهمية صمغ العسل كبيرة ومتعددة. فلقد درس تأثيره على الفئران الطبيعية والمعداة، وتحديدًا على سكر الدم وجليكوجين الكبد وأيضًا كمضاد للبكتيريا، فتبين أن له أثرًا مثبطًا ومخفضًا لمستوى السكر بالدم ولجليكوجين الكبد، وإن كان محدودًا ما يفتح بابًا للأمل أمام مرضى السكر قد يتسع بمزيد من الدراسة والأبحاث.

وثبت أيضًا فاعلية صمغ النحل كمضاد للفطريات؛ حيث أثبتت التجارب كفاءة صمغ النحل في هذا المضمار، وإن تفاوتت تفاوت تبعًا لنوعية الفطر، ويتراوح أقل تركيز مثبط بين ١٠ مجم/مل لفطر الأسبريجيليس فلافس إلى ٣٠ مجم/مل لفطر الأسبريجيليس برازيتيكس.





خلاصة القول إن للعسل منافع عظيمة ومتعددة، يجب ألا نغفل أنه جلاء للبصر ويعالج عددًا من الأمراض التي تصيب العين، كما أنه إذا استن به يزيد من بياض الأسنان ويصقلها لما به من مواد فعالة، ويحفظ صحة اللثة لما به من مضادات للبكتيريا، وهو مزيل للآلام والالتهابات، معالج للحروق ومحفز لالتئام الجروح، كما أنه مدر للطمث، وتناوله على الريق يزيل البلغم، وتزداد فاعليته مع إضافة قليلة من عصير الليمون، وأيضًا يحدث العسل لينا فيدفع الفضلات من الأمعاء لما له من الخاصية الهيدروسكوبية، ومع شربه مع الماء يساعد في علاج قرحة المعدة لما به من مضادات للميكروبات، وينصح به كغذاء لعلاج مرضى الكبد خاصة المصابين بالالتهاب الكبدي الفيروسي...

لقد أثبت العلم اليوم كل هذه الفوائد الجمة لعسل النحل، وكأنها رسالة توضح للعالمين لماذا كرم المولى ﷻ هذه "الحشرة" في كتابه المجيد، فتبارك الله أحسن الخالقين إنه العليم الخبير. ■

(*) أستاذ المناعة بالمركز القومي للبحوث في القاهرة / مصر.

أ.د. عرفان يلماز*

قسا قلبك فظننتَ بالمؤمنين شرًّا، وغلظتْ روحك فظننتَ الإساءة منهم إليك تأتي..
إذا كان هذا اعتقادك فأين ظنُّكَ بالمؤمنين خيرًا؟ اشحذْ عقلك، وتخلص من وسواس نفسك،
وأزحْ ثقل روحك، والتمس لك ربانيًّا يهزُّ قلبك ويسيل دمعك.

* * *

عبد الله يشكر الخالق

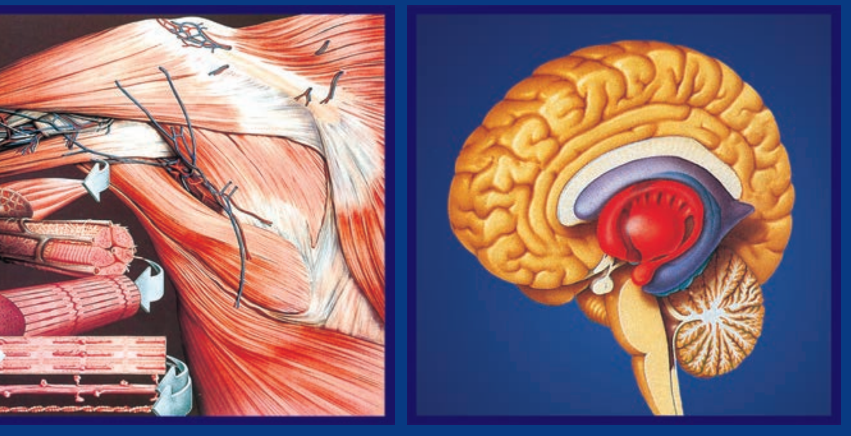
أشكرك يا رب أن خلقتني في أحسن تقويم وأنعمت عليّ نعمًا لا تعد ولا تحصى... فمنذ سنوات وأنا أستمع بدقة إلى الأعضاء التي وهبتني إياها، حيث كانت تحدثني عن مهامها ووظائفها التي كلّفتَها بها، لتكشف لي أسرار قدرتك وعظمتك. أحمدك اللهم على منحك لي فرصةً أدركتُ من خلالها أني أحمل بضاعة لا تقدر بثمن ولا تزان بميزان.

كلما أمرُّ من أمام إحدى المستشفيات، تتراءى أمامي صور الذين ينتظرون نقل كلية أو كبد... ترتسم أمامي صور المربوطين إلى الأجهزة التي تقوم بدور الأعضاء التي فقدوها.. فأسألك اللهم أن تمن عليهم بالشفاء وأن ترزقني الصحة والعافية الدائمة مدى الحياة...

مركز الكائنات

لقد أدركت عند إنصاتي إلى الأعضاء التي أودعتها داخلي حقيقةَ أنك أوجدت الحياة في مركز الكائنات، ثم سخرت كل شيء لخدمتها، فأمرتَ جميع المخلوقات بأن تؤدي دورها ضمن دائرتها لاستمرارية هذه الحياة... فالجسيمات الذرية وما نجهله من عوالم العدم، تحتل مكانة في أوسع هذه الدوائر لتأتي بعدها الذرات والجزيئات التي تتشكل منها العناصر، وهي بدورها تشكل الجزيئات الماكروية ومنها العوالم العضوية ثم النباتات فالحيوانات... فكل دائرة تسعى -في خدمتها للحياة- إلى إعداد الدائرة التي تليها. هذا وقد تحتل الجزيئات الضخمة؛ كالبروتينات والأمينوسيتات والهيدروكربونات والدهون، دائرة المواد التي تكوّن الخلايا







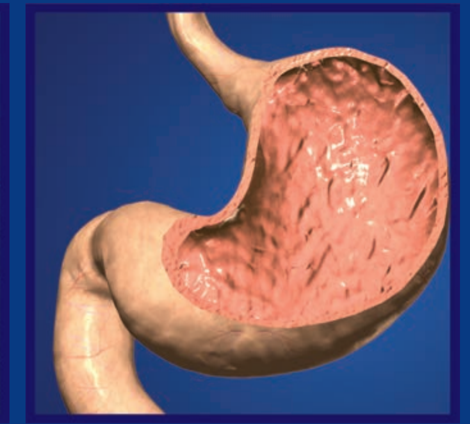
الجهاز العصبي الجهاز العضلي الأنف

لتتكـون بعدها دائـرة الخلايا، ثم تأتي مجموعـة الخلايا التي ندعوهـا بـ"النسـيج"، وكلما نقتـرب من المركـز، تظهر أمامنا وبـكل وضـوح الحيـاةُ المعجـزة التـي تحتـوي علـى أنظمة خارقـة مذهلة؛ وكلما تعمقتُ في عالـم هذه الدوائر، أدركتُ عظمـةَ الإبـداع وروعة الكمال، فليسـت هناك دائـرة أقَلّ من غيرهـا أهمية ومكانة، فـكل واحدة منها تؤازر الأخرى وتقوم بخدمتهـا، فـلا تفوّق بيـن الذرات البسـيطة الشـكل المفعمة بالأسـرار المحكمـة، وبين سـائر الأعضـاء. إذ إن جميع هذه الدوائـر بمثابـة العضو الواحـد إذا اختلت دائـرة منها اختلّت سائر الدوائر ومن ثم تدهورت الحياة.

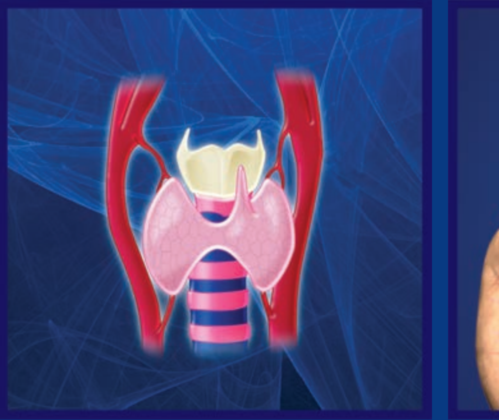
لقد وضعتَ الحياة -يا إلهي- في مركز الكائنات، وأمرت الكائنـات بخدمـة الحيـاة لتكـوّن الأرضيـة التي تتجلـى فيها أسـماؤك الحسـنى وصفاتـك العليا. فلـولا الحياة لمـا عرفنا اسـمك "الرزاق" لأن الرزق لا يحتاجه سوى الأحياء.. ولولا الحيـاة لمـا أدركنـا اسـمك "الجميـل" لأن الجمـال يختص بالأحيـاء.. ولـولا الحيـاة لمـا ذكرنـا اسـمك "الشـافي" لأن الأحياء فقط يمرضون ويستشـفون ويصحون.. فكل أسمائك الحسـنى تتجلـى في الحيـاة التـي خلقتها في دواخلنـا.. لقد جعلتَ الكائنات الحية كلها تجليًا لاسمك "الحي"، ووضعتنا نحـن البشـر علـى رأس هـذه الكائنات، فنحمـدك اللهم على كرمـك وجـودك الـذي لا ينفـد... ربما يـؤدي كل عضو من أعضائي شكره لك بما يبديه من أحواله الفطرية وخصوصياته التـي قدرتهـا فيـه ومكنتها منـه، غيـر أن تزويدك لـي بالعقل والشـعور والإرادة واللطائف القلبية العديدة -وقد خصصتني بهـا من بيـن الكائنات- يوجـب علي نمطًا آخر مـن العبودية الإراديـة الروحيـة المدرِكـة. فامنحني إلهي مزيـدًا من التفكر بآياتـك والتأمل بجمـال صنعك، وامنحني آفاقًـا من المعرفة تجعلنـي سـاجدًا لك مدى الحيـاة، وامنحني -يـا إلهي- من القـدرة والقوة أن أسـتخدم بها أعضائي التي اسـتنطقتها بعلم جزئي بسـيط منحتنيه بلا حول مني ولا قوة، في سـبيل الخير والأعمال الصالحة.

الشكر على الرزق

ربِّ وإلهي! أدركتُ -أيضًا- خلال إصغائي لحديث أعضائي أمـرًا هو؛ أنك جعلت الرزق فـي مركز الحياة وجعلت الحياة فـي مركـز الكائنـات... فـكل المخلوقات تسـعى لاسـتيفاء الـرزق وتحصيله.. حتـى إن أعضائي خُلقتْ وفقًا لهذا الرزق بتسلسـل وبترتيب إلهي فريد. ومن المثير أن المعدة والأمعاء تتشـكل أثنـاء تطور المضغـة التي هي مجموعة مـن الخلايا، كمـا أن تشـكُّل الجهـاز الهضمي والشـروع بالتغذيـة قبل أن يتشـكل أي عضو من الأعضاء أمـر مدهش للغاية... وبالتالي فإن تنـاول الكتب الفيزيولوجيا، موضـوع فيزيولوجيا الجهاز الهضمي ثم الجهاز التنفسـي والـدورة الدموية وعلم وظائف الأعضاء المفرغة، تبيّن بجلاء مدى أهمية الحياة وضرورتها. فأنشـطة الكائنـات الحية جميعها -بقصـر فهمي- تدور حول الرزق، وأنت -إلهي- تمنح بفضلك كل الكائنات ما يناسـبها مـن الغـذاء؛ بدءًا من وحيـدات الخلية إلى الحيتـان العظيمة، وتدفعها للسـعي من أجل أرزاقها.. ولولم يكن هذا السـعي، لما كانت هناك حاجة لنشـاطها وحركتها، ولولا هذا السـعي لمـا كانت للمدنيات والحضارات قائمـة، وما كان للعلوم أن تتطـور... يبـذل الناس جهودهم ليكونوا فـي الحياة أصحاب

المعدة




جهاز الغدد الداخلية

الكبد

حِرَف وأعمال لتأمين رزقهم. فلو لم نشعر بالجوع لما دعت الضرورة إلى الاكتشافات والاختراعات والتعمق في فضاءات العلم. والحكمة من سعي الكائنات، تكمن في الطاقة التي نجهل ماهيتها وندركها بآثارها والتي أودعتَها في تلك الأرزاق. ولذلك كانت الفعاليات الحياتية وعمليات الاستقلاب جميعها، تدخل في دورتها للعمل فقط، بسبب القيمة الطاقية التي تغذيها... ولولا الطاقة المخزنة في مادة الغذاء، لما عمل أي نظام. لهذا نسعى لكسب أقواتنا ونتناول طعامنا (الجهاز الهضمي)، ثم نحرق ما تناولناه بالأوكسجين (جهاز التنفس)، وننقله إلى الخلايا (جهاز الدوران)، ثم نطرح الفضلات التي تنتج من الاحتراق إلى الخارج (جهاز طرح الفضلات)... هذه الأنظمة جميعها مُنحت لنا للمحافظة على حياتنا من خلال عملها بالطاقة اللازمة.

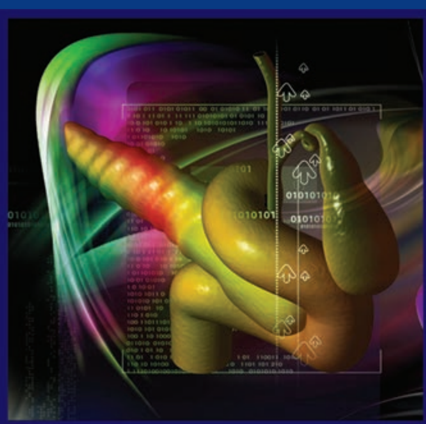
الشكر على أجهزة الحركة

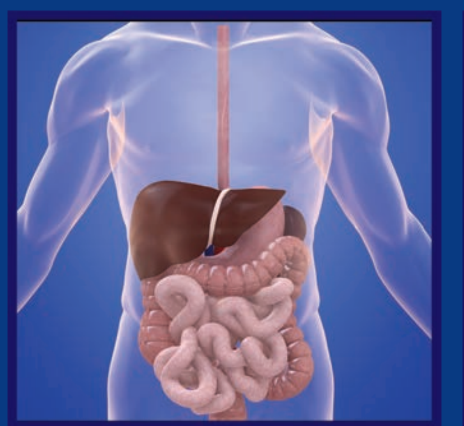
ومن أجل ألا تضيع الطاقة هباءً، ومن أجل أن يتم استثمارها في أعمال مفيدة، جهّزتَنا بأجهزة الحركة والحواس والنظام العصبي، وهذا ما يميزنا عن النباتات. ثم منحتَنا لسانًا وقدرة على الكلام، وهذا ما يميزنا عن سائر الحيوانات، ووهبتَنا -بإحسانك وفضلك- عقلاً ومشاعر لا تملكها الحيوانات كذلك، ومتّعتنا بميزات قلبية وروحية، ولطائف نجهل خفاياها، وثقافة وجدان لنسابق بها الروحانيين... إلهي! لقد وضعتَ الرزق في مركز الحياة لتتجلى كل هذه اللطائف والإحسانات التي ذكرناها... أما الرزق، فسخرته لنا من اللحوم والخضروات والفواكه والأشربة المتنوعة بطعمها وألوانها.

لم تمنح النبات نظامًا عصبيًّا ولا حركيًّا، لذلك قدّمت لها رزقها جاهزًا مجهّزًا فغذيتها بالشمس من فوقها وبالماء والتراب من تحتها. ولكن الحيوانات التي منحتها نعمة الحواس والقدرة على الحركة تسعى وراء ما أنعمتَ عليها لتعبّر عن شكرها لك، كما أعطيتَ بعض الحيوانات القدرة على تحويل ما تأكله، إلى لحم ولبن من أجلنا.. نعم، خلقتَ النباتات والحيوانات وسخرتها لتأمين رزقنا... هذا وقد خُلق الكون والكائنات بتوازن عجيب؛ فولادتها، وتكاثرها، ومواتها مبرمج حسب إعاشة بعضها البعض... فلم تعط -يا ربنا- أيًّا من الأحياء تكاثرًا وانتشارًا بلا حدود، فكل حي مرتبط في وجوده بالأحياء الأخرى في توازن بيئي عجيب يقوم على أساس الرزق.

لقد بدأتُ -يا إلهي- بالحديث عن الأعضاء حتى بلغتُ التوازن البيئي، فكل شيء خلقته ينظر إلى الآخر... فكان قد طلب مني أستاذي أن أمضغ قطعة الحلوة بتريّث حتى أتيح لنفسي فرصة التفكير والتأمل بهذه النعمة مليًّا وأعرف مدى أهمية الشكر لك، وفي أثناء ذلك كانت أشعة الشمس تنساب من بين أوراق الشجر لتلامس رأسي برفق.. فابتدر إلى مخيلتي فجأة أني أتناول -في حقيقة الأمر- الشمس والهواء والتراب في قطعة الحلوة هذه، ثم تعلق بصري بالأشجار فرأيتُ أن اللقمة التي أمضغها ما هي -في الحقيقة- إلا تحوّل الشمس إلى شكل نبات... حيث إن السكر الذي تشكّل من أشعة الشمس المجبولة بالماء والتراب بعد طَهْيها بالغاز الكثيف الموجود في الهواء، يتحوّل إلى الدقيق والدهن أولاً، ثم إلى حلوة لذيذة صنعتْها يد الإنسان الماهرة. أما اللسان الذي جعلتَه بابًا لكل هذه النعم ومتّعتَه بتمييز اللذائذ عن بعضها


العين


البنكرياس


الأمعاء

البعض، ما هو إلا حافز لإدراك حزائن رحمتك المديدة، ودفعٌ على الشكر لنعمائك اللامتناهية، حيث جعلتَ -يا رب- دوام الرزق بالشكر عليه.. وإذا جعلت تعطُّش الحيوانات للرزق والسعي وراءه نوعًا من الشكر الفطري، فإنك طلبتَ منّا أن نقوم بالشكر المنبعث من الشعور الإرادي الخالص.

نعمة الشكر

يا سلطاني، ويا صاحب القدرة والرحمة اللامتناهية! الآن أدركتُ أن الشكر من أعظم النعم! نسألك اللهم ألا تؤاخذنا عن عجزنا بشكر يليق بكرمك! إذ لم نع معنى العبودية لك، ولم ندرك معنى الشكر على نعمك التي أنعمتها علينا من خزائن رحمتك.. لم نعرف استخدام عقولنا التي سخرتها لنا لتزيح لنا أستار الحق والحقيقة، ولم نعرف استخدام بصرنا في سبيل الكشف عن جمالك، ولم نعرف -كذلك- استخدام ألسنتنا في سبيل تسبيحك وتقديسك.. أشكرك اللهم على نعمك التي لا تعد ولا تحصى ألف مرة ومرة.

إلهي! في كل نبضة من قلبي، وفي كل نفَس يخرج مني، وفي كل خطوة أخطوها بقدمي، وكل شربةِ ماءٍ ترويني، وكل لقمة أتقوّى بها، وكل طرفةِ عين، وكل صدى صوت في سمعي، وكل تحريكةِ مفصل، وكل حبةِ عرَقٍ تتدحرج على جلدي، وكل عبق يتسلل إلى أنفي، وكل جوعة وكل شبع، وكل كلمة تصدر من حلقي، وكل عمل تقوم به جوارحي وما ينتج عنه من آثار... إلهي! لا تحرمنّي إدراك أن ذلك كله بأمرٍ وإرادةٍ كلية منك... فلا يرفّ جناح لذبابة ولا ورقة في شجرة بلا علم أو إرادة منك... فهل يمكن أن تتحرك شعرة في رأس إنسان جعلته خليفة في أرضك إلا بعلمك وإرادتك؟! لكننا في معظم الأحيان نغفل عن ذلك وننساك، وربما لا يذكر النعمة من يتذكر، إلا بعد أن تستردّ منه ما وهبتَه... فاجعلنا إلهي من الذاكرين لنعمك والشاكرين لك.

مرضاة الله

إلهي! ألهمني أن أستعمل أعضائي السليمة -التي وهبتنيها- في مرضاتك... اللهم أرغب إليك أن تأخذ أماناتك عن أن أعيش عيشة الغفلة عنك، فأكون في منأى عن خصومة هذه الأعضاء التي لا تقدّر بثمن. لقد حدثني دماغي عن قابليته وقدراته الكثيرة عند بيانه عن نفسه وعن خصائص تكوينه، غير أني لم أستعمله كما ينبغي... اللهم إني أسألك علمًا نافعًا أؤدي به وظيفة دماغي، فيعمل على اكتشاف أصول وقواعد جديدة تزيدني معرفة بك. وامنحني -يا الله- إرادة أغمض بها عيني عن المفاسد فلا أرى إلا الخير ولا أقرأ إلا كتاب الكائنات. وأعنّي -يا رب- على السير إليك، واجعل لساني يلهج بذكرك، وأذناي تسمع الواردات من بيانك، وقلبي ينبض باسمك، وأنفاسي لأنفقها من أجلك، ومعدتي لأملأها من رزقك الحلال، ونفسي حتى تجد طمأنينتها في السعي في مرضاتك، والرغبات المشروعة من أمرك، وأعنّي -يا الله- ليكون ذلك خلُقًا عندي أنال به رضاك... إلهي! نحن عبيدك الضعفاء العاجزون، المُلكُ ملكك تتصرف فيه كما تشاء، فتبتلي بعض عبيدك باسترداد بعض ما وهبتهم... فامنحهم إلهي الصبر، ولا تمتحنّا بما لا نقدر عليه، وارزقنا التعرف على نعمك علينا قبل زوالها، وارزقنا الشكر عليها يا أرحم الراحيم. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

الليل محراب العارفين

أرعى النجوم وليلي قلب نجمه   يخبو فتظلم نفسي إنه القبر
أشكو إلى الله بثي ضارعا عله   يبزغ فجر فلا هم ولا كدر
وتارة يشرق النجم فتسري إلى   العلياء روحي ويحلو معه السمر
مناجيا أرتجي وصلا معذبتي   أحبة حال دون شملنا القدر
ألا لقاء يضمنا نجدد عهـ   ـدا سالفا طيب مورده والأثر
في روضة من رياض الله نعمرها   نستنزل الرحمة الفضلى ونعتبر
أيام كنا نرود مسجدا حلقا   كأنها من جنان الله مختصر
مناهل من معين الوحي رياها   الحلم والعلم واليقين والنظر
من فيضها شرب الفؤاد بعض الهوى   هذا الحنين لذياك الهوى أثر
إيه مراتعنا أين المجالس من   فقه ندارسه والروح والفكر
أين المراقي؟ وأين السابقون بهم   نسمو وأرواحنا تصفو وتزدهر
السالكون إلى الله على رشد   مشاعل النور وإن غابوا وإن حضروا
بل أين في الكون ديننا ودعوتنا؟   أين الفوارس والرايات والضمر
في سرج الدهر باتوا؟ أم نأوا عن سفا   سف الحياة تسامى بهم القدر
نحو الجنان وأسرجوا خيول الهدى   ونحن في البيداء مسنا خطر
هانت عزائمنا وفي دروب الدنى   تهنا فضاع العز والهدى النضر
إيه مراتعنا! أين الأحبة إخـ   ـوان الصفا والنقا والأنجم الزهر
إني أرى في سماء الواصلين تكا   ثرت نجوم وفي سمائنا كدر
بالصالحات تضيء الظلمات هم   الشهيد والفارس المغوار والدرر
هذا السبيل سلكناه معا فمضى   بالعز سابقنا ونحن ننتظر
ركب مضى يقتفي آثار صحب إذا   شح الزمان لهم في بيدنا أثر
كالنخل مهما تكالبت عليها الظنو   ن تبتدي وصلها ويغدق الثمر
بالخير يجري سحابنا فيغمر رو   ضنا نداها ويحنو الظل والشجر
وكلما عصفت يد الظلام مرو   جنا تجدد عشب ونما الخضر
أحبتي هذي رياضكم بكر   ما مسها ظالم ولا دنا الخطر
لكنها العلياء تجتبي كل من   تصفو سريرته والموعد الكوثر
أرعى النجوم وليلي للمغيب دنا   فشمري يا نفس بورك السحر

مــولاي مغفــرة منــك عزائــي وإن　ضاقت بــك الدنيا وســامني الضرر
بنــور وجهــك أحتمــي مــن النظرا　ت منــك غضبى وأنــت أمرك القدر
مولاي خذ بيدي وامح الشــقاء ويسـ　ـــر لي طريق الهدى من أمرك اليسر
مولاي نحن الضعــاف فيك يجمعنا　مواضع الســجدات والهدى النضر
لا تحرمنــا ثبــات المخلصيــن وأجـ　ـــر الفاتحيــن ومــن للمعاصي هجر
ليــل الواصليــن أنيــس العارفين وليـ　ـــل الغافلين وشــيك مســه الخطر

مصطفى حمزة: شاعر سوري.

الرحيم قريب

أيضيق صدرك والرحيم قريب　أيضيق صدرك والرؤوف مجيبُ؟
أيَموج هم الفؤاد ونوره　ماجَت به عند الدعاء قلوب
هل تَقنَطَنَّ ببؤسِ يأسٍ قاتلٍ　والراحمُ الرحمان منك قريب
نَفَسُ الغريق دعاؤنا ونداؤنا　ناداك ربي قلبيَ المكروب
في لهفٍ ناداك عبدُك ضارعًا　داعيكَ ربَّ الكونِ ليس يخيبُ
باب الرجاءِ طرقتهُ في سُحْرَةٍ　فبدتْ لسرّي في الغيوب غيوبُ
وتناثرتْ منّي الدموع بفرحة　أملٌ يشعُّ ورحمة وطبيبُ

محمد عبد الله الحسو: شاعر عراقي.



العطري بن عزوز*



الطاقة الشفائية في الإيمان

العلاقة بين علم الطب وعلم الفكر والإيمان شديدة الارتباط بتاريخ الفلاسفة والأطباء المسلمين، حيث عرف عن أشهر هؤلاء الفلاسفة أنهم كانوا أطباء وماهرين أيضًا في علوم عصرهم بالإضافة إلى رسوخ إيمانهم. ومن الأسماء المعروفة في هذا المجال ابن سينا صاحب كتاب "القانون في الطب" و"كتاب الشفاء" في الفلسفة، وأبو بكر الرازي صاحب كتاب "الحاوي في الطب" وصاحب المؤلفات الكثيرة في الفلسفة والمنطق والإلهيات، وابن رشد صاحب كتاب "الكليات في الطب" وكتاب "فصل المقال في الفلسفة"، وهكذا ابن طفيل وغيرهم.. وقد انفكت هذه العلاقة بين هذين الحقلين في العصور الحديثة عند المسلمين، وبقيت على نطاق محدود عند الأوروبيين.

الطب بين المادي والمعنوي

وإذا كان كما قيل: العلم علمان؛ علم الأبدان وعلم الأديان، فإنه يتبادر إلى الذهن أن الطب يمكن أن يعرض على شكلين اثنين؛ طبٌّ مادي يستعمل الجراحة والعقاقير، وطبٌّ معنوي ينطلق من الذهن والإرادة العازمة إلى الخشوع والتفكر العميق بمقتضى عقيدة معينة ومعرفة راسخة.

فقد استفاد مالك بن نبي من الهندسة في تنظيم وتحليل الأفكار، واستفاد الدكتور زغلول النجار من العلوم والجيولوجيا في دراسة الأفكار وبالذات في تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم. كما استفاد أيضًا، الطبيب والجراح "ألكسيس كاريل" من تعرّفه على الإنسان، فخرج لنا بتلك الفلسفة الناقدة والناقمة على المدنية الغربية، مقترحًا رؤية

جديدة لحياة الإنسان.

فهناك أزمة الضمير والوجدان البشري الذي لم يذق طعم الراحة والسعادة رغم كل هذه التيسيرات المادية الهائلة. إنه مريض يعاني من مرض عضال قد استعصى حله. وكل ما نرى في واقع الحياة البشرية، إنما هو من نتائج هذه الأزمة. وإنك لتسمع صيحات الخطر والإنذار من العقلاء في الأرض جميعًا من الشرق والغرب على حد سواء، ومن أبرزها صيحة الدكتور "ألكسيس كاريل" الفرنسي الذي قضى عمره في دراسة الطب في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، ودعا فيها إلى تغيير الحضارة التي نعيشها وإبراز فكرة أخرى للتقدم البشري.

إن منشأ هذه الأزمة هو أن كل ما درس عن الإنسان ناقص مشوّه، وخاصة في علم النفس الذي اعتبر علمًا خاضعًا للدراسة، فقد كان العلماء يتعثرون جدًّا فيه كما تضاربت نظرياتهم وآراؤهم، والسبب في ذلك هو أن عالم النفس ليس كعالم المادة، فدراسة المادة بلغت حدًّا هائلاً من التقدم، ولكن علم النفس يقف كالقزم المشوه الصغير أمام دراسات عالم المادة.

هذه الأزمة هي أزمة الشرود عن الله تعالى، هي المعرفة الناقصة المشوهة التي ليس لها علاقة بالذي صمم هذا الوجود وفطره... فجل الأطباء الذين يدرسون في كليات الطب، يكتسبون أكداسًا من المعلومات المفرقة المجزأة، لا يشعر الإنسان بعد أن ينتهي منها بالقصد والتصميم في خلق الإنسان العجيب. وكان لهذه الدراسة النتائج السيئة في العقل والقلب، وأعطت نتائج معاكسة للشيء الذي يجب أن يصل إليه الدارس للطب.

أولاً: أهملت الدراسة النفسية الروحية في الطب. فالدراسة المادية واسعة جدًّا وكل فرع له كتابه، بل كتبه التي لا تنتهي، أما الدراسة النفسية والروحية فكتاب واحد صغير أو ملخصات بسيطة، وهكذا يخرج الذي يدرس هذه المادة وهو متضخم في جانب وضامر بشدة في جانب آخر.

ثانيًا: إن الدراسات والأبحاث في هذا المجال، كأنها تتعمد إغفال محصلة هذه الأبحاث وتجعله يخرج بنتيجة سلبية عما رأى وعاين، ومع هذا فإن الفلتات تبدو هنا وهناك، وهي تقر وتعترف -ولو رغمًا عنها- بعظمة الإحكام والبناء وروعة التناسق والعمل... فالذي يعلم أن هناك ثلاثة عشر مليار خلية عصبية، تعمل بشكل دقيق محكم متناسق متعاون لتأدية الأغراض الحيوية والفكرية، فالإنسان يدهش للرقم أولاً ثم لكيفية عملها وترابطها وإبداعها.

الطب الإسلامي يتميز عن غيره بصورة الإنسان الشاملة المتكاملة الجامعة للجسم والنفس والعقل والقلب والروح، كوحدة متماسكة لا تتأثر بتغييرات التيارات الفكرية المتقلبة والمحدودة في قفص المادة أو النسق المذهبي.

فالطب الإسلامي يتميز عن غيره بصورة الإنسان الشاملة المتكاملة الجامعة للجسم والنفس والعقل والقلب والروح، كوحدة متماسكة لا تتأثر بتغييرات التيارات الفكرية المتقلبة والمحدودة في قفص المادة أو النسق المذهبي كما هو الحال في الغرب. فلو نظرنا إلى المدارس العلمية والطبية والفلسفية والنفسية الغربية، لوجدنا أنها ما زالت تبحث عن صورة الإنسان التي يقول عنها الفيلسوف الألماني "كارل جاسبرز" (Karl Jaspers): إنها بعيدة المنال صعبة الإدراك، تنفلت من قبضة البحث. وكما هو موقف "كاريل" من الإنسان الغربي، فالفكر وراحة البال والرجاء والتفاؤل وأداء العبادات والجمع بين الطب المادي والطب المعنوي اتباعًا للسنة النبوية، كلها تعيدنا إلى النظرة الشمولية، حيث أثبتت التجارب الحديثة صحة دور العلاج الروحي -فيما يتعلق بالإرادة والتأمل والخشوع- في شفاء كثير من الأمراض. فقد شرع بعض الأطباء في إجراء اختبارات، لرؤية ما يحدث في الجسم من تغيرات بيولوجية وكهربائية إثر تركيز الفكر في التأمل والخشوع في الصلاة حتى يقوم البرهان على المنفعة العلاجية للوسائل الروحية.

الصلاة والشفاء من الأمراض

وأثبتت التجارب فعالية الصلاة في الشفاء من كثير من الأمراض كما يقول الدكتور كاريل: "لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا. وقد رأيت -بوصفي طبيبًا- كثيرًا من المرضى فشِلت العقاقير في علاجهم، فلما رفع الطب يديه عجزًا وتسليمًا، دخلت الصلاة فبرأتهم من

عللهم". ويقول الأخصائي في جراحة العيون الدكتور محمد السقا: "إن الصلاة هي الدواء الناجح والشفاء الرباني لكل أمراض الدنيا البدنية والعضوية والنفسية والعصبية، وفيها الوقاية من حدوث كل هذه الأمراض... ففي عملية الصلاة تتحرك كل عضلة من عضلات الجسم وفي هذا صيانة لها وتدريب لتقويتها".

وفي تحديد العلاقة بين الطب والإيمان، نذكر هذه القصة الشاهدة على الارتباط الوثيق بين الطب والإيمان. يقول الدكتور الأمريكي "بول إرنست أدولف": "عندما كنت أعمل جراحًا في إحدى المستشفيات، جاءتني ذات يوم جَدّة جاوزت السبعين تشكو من شدخ في عظام ردفها، وبعد أن وضعت فترة تحت العلاج أدركت من فحص سلسلة الصور التي أخذت لها على فترات تحت الأشعة أنها تتقدم بسرعة عجيبة نحو الشفاء، ولم تمض أيام قليلة حتى تقدمت إليها مهنئًا بما تم لها من شفاء نادر عجيب. عندئذ استطاعت السيدة أن تتحرك فوق المقعد ذي العجلات، ثم سارت وحدها متوكئة على عصاها... وقررنا أن تخرج تلك السيدة في غضون أربع وعشرين ساعة وتذهب إلى بيتها، فلم تعد حاجة إلى بقائها في المستشفى.

وكان صباح اليوم التالي هو الأحد، وقد عادتها ابنتها في زيارة الأحد المعتادة، حيث أخبرتها أنها تستطيع أن تأخذها (والدتها) في الصباح إلى المنزل لأنها تستطيع أن تسير متوكئة على عصاها. لم تذكر لي ابنتُها شيئًا مما جال في خاطرها، ولكنها انتحت بأمها جانبًا وأخبرتها أنها قد قررت -بالاتفاق مع زوجها- أن يأخذاها إلى أحد ملاجئ العجزة. ولم تكد تنقضي بضع ساعات على ذلك، حتى استدعيت على عجل لإسعاف السيدة العجوز. ويا لهول ما رأيت... لقد كانت المرأة تحتضر، ولم تمض ساعات قليلة حتى أسلمت الروح. إنها لم تمت من كسرٍ في عظام ردفها ولكنها ماتت من انكسارٍ في قلبها. لقد حاولت دون جدوى أن أقدم لها أقصى ما يمكن من وسائل الإسعاف ولكن دون جدوى. إن أهم عامل في شفائها لم يكن الفيتامينات ولا العقاقير ولا التئام العظام، ولكنه الأمل... وعندما ضاع الأمل تعذر الشفاء.

الطاقة الروحية

ومن هنا ندرك تلك الصلة التكاملية بين الإيمان وعلم الطب، فقد يحدث الإيمان في شفاء الأمراض ما لا يحدثه الطب. فإننا نشق طريقنا نحو الشفاء، وبخاصة إذا كان العلاج الروحي مصحوبًا بتناول المواد ضد الحامضية وغيرها من العقاقير التي تساعد على الشفاء من هذه القرح".

ولقد أخذت هذه الفكرة الأخيرة تتبوأ -تدريجيًّا- مكانًا مرموقًا عند عدد وافر من الأطباء في العالم كله عندما يقولون: لو علم الناس ما للطاقة الروحية من فائدة علاجية على الجسم والنفس، لتخلوا واستغنوا عن استعمال كمية وافرة من الأدوية التي في معظمها لا تعالج إلا الأعراض، ولا تنفذ إلى الأسباب بأي وجه من الوجوه.

وليس المقصود من كلامنا التقليل من أهمية دور الطب والأطباء والدواء، ولكن نبين أن الجسم يجب أن يعتمد على نفسه لكي يرجع إلى حالته الطبيعية ويستعيد توازنه مما يتطلب طاقة روحية ونفسية، وهو الأمر الذي أمسى معروفًا لدى أطباء الغرب والشرق في هذا العصر. ولا زلنا نجهل الكثير من قدرة الروح وتأثيرها في سير وظائف الجسم، لهذا فلو رجعنا إلى تاريخ الأطباء المسلمين في العصور الذهبية، لوجدنا أنهم تحلوا بالإيمان والتقوى والورع والأخلاق الحميدة... فكان الطبيب المسلم يتحلى بالأخلاق الطيبة والتقوى.. وبهذا الصدد يقول الطبيب يعقوب بن إسحاق الكندي نقلاً عن كتاب "السلوك المهني للأطباء": "ليتق الله تعالى المطبب، ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض..." ويوصي ابن سينا صديقه أبا سعيد بن أبي الخير الصوفي نقلاً عن كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء": "ليكن الله تعالى أول فكر له وآخره، وباطن كل اعتبار وظاهره، ولتكن عين نفسه مكحولة بالنظر إليه، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه، مسافرًا بعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى... ومعرفة الله أوّل الأوائل، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه".

فالعلاقة وثيقة بين الطب والإيمان، وإنه لا يمكن بحال من الأحوال أن تنفصل هذه العلاقة، وإلا يصير المرء كمن يسير بسيارة في الظلمات، ويبقى مهددًا بالخطر على الدوام... قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(الشعراء:٧٨-٨٠). ■

(*) باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

أ.د. محمد باباعمي*

الزمن في منظور الأستاذ فتح الله كولن



يتشكَّل "الزمن" في منظومة الأستاذ "فتح الله كولن" تشكّلاً شموليًا، متجاوِزًا، لا يحدُّه تخصُّص واحدٌ ولا علمٌ واحد، ولا يتوقف على ثقافةٍ فريدة ولا حضارة محدودة؛ فهو يقفز من "الأزل" إلى "الأبد"، و"يتجاوز الزمن" ليرسم ملاحم "خارج الزمن"، ثم إنه مع ذلك يلامس خطَّ "الواقع"، ويصنع "الحدث" و"التغيير"؛ في سمفونية بديعة لطالما رسم حروفها بروحه وعقله ومهجته، وأسعد بها الملايين عبر العالم، لا يبغي من أحد جزاءً ولا شكورًا.

فالـذي "يتجـاوز الزمـن" ويتصـل بسـبب بما "فوق الزمـان"، هو الله تعالى الذي "لا يمكن حصره بزمان أو مكان"، فهو -تعالـى- خالقهما والقاهر فوقهما ومُجـري "نهـر الزمـن"، وهـو الباسـط -جـل جلالـه- لـ"سـفوح المـكان"، بقدرتـه اللامتناهيـة التـي لا يحدُّها حدٌّ ولا يقيِّدها قيد، وهو -سبحانه- إذا أراد شيئًا أن يقول له "كن"، "فيكون". ونتيجة لذلـك يكون كلام الله تعالى، أي القرآنُ الكريم، وما سـبقه مـن كتبٍ منزَّلة على أنبيائـه البـررة -قبل أن تحـرَّف- تكون كلُّها متجاوزة على كل قيد، ولا يستثنى من ذلك قيد الزمان.

روح القرآن

ومـن ثـم فإن "روح القـرآن لا يحدُّه زمـان ولا يبلَى"، بل إن الزمـن يبلى ويبلِي كلَّ مخلوق، لكنَّ ذات الزمن "كلما شـاخ وتقـدّم فـي العمر ونضج وتكامل وقرب من أشـراط السـاعة ومن "آخر الزمان" كلما لمعت حقائق القرآن كالنجوم اللامعة فـي كبد السـماء". ولا يملك الباحث عـن الحقيقة، الصادقُ، الصدوقُ، إلا أن يقرِّر أن "القرآن معجزة كبيرة وشاملة وغنية تتجاوز كل الأزمنة والأمكنة".

وإننا عندما نمعن النظر في "العناصر التي يستعملها القرآن، نراها غير مختصة بزمن معلوم أو مكان معلوم"، وعندما نتتبع الحـوادث التي يرويهـا نجدها "تتكرر على مـرّ الزمن". ومن حكمـة الله تعالى أن القـرآن لا يعلو فوق الزمن لمفرده مثلما يفعـل البشـر الأنانيون، وإنمـا كلُّ من ارتبط بـه من الخلائق لحقته أبديته الغامسة جذورها في بحر الخلود: فروحُ القدس جبريـلُ عليه السلام، والرسـول الأكـرم محمـدٌ عليه أفضـل الصلاة وأزكـى السـلام، وكلُّ من فـارت روحه بنور مـن الله، يحملُه كلام الله تعالى الدائم بين ثنايا سفينة الزمن، فيسكب اللانهاية علـى وجوده ليكتسـب صفـة الـدوام والتجـاوز والتعالي...

وإن "القـرآن ليختـرق بنـا آمـاد الزمـان والمـكان حتـى لنـكاد نشـعر بأمواج الأبديـة وهي تضرب شـواطئ أرواحنا" فتفيض الأرواح معانيًا لا تسـتوعبها السموات ولا الأرضون، وإنمـا فقط يسـتوعبها قلب المؤمن، بأمـرٍ من الله تعالى الذي أودعهـا فـي فلـك مـن أفـلاك الأزليـة والأبديـة، بخاصية ﴿قُلْ لَـوْ كَانَ الْبَحْرُ مِـدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّـي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمَـاتُ رَبِّـي وَلَوْ جِئْنَـا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

الزمـن في فكر "فتـح الله كولن" يتناغم مع جمالية الكون، فيكون أحيانًـا "شلاَّلاً" هـادرًا، وأحيانًا أخرى "فانوسًا"، وأحيانًا "كائنًا يهـرم ويشيـخ" ويمـوت، وقبل ذلك يولد ويقـوى. وقد يتحول إلى نسيـج "ينسـج الجهـلُ عليه خيوطـه" وأوهامـه وأحزانه، ثم يتحـول إلى "سفينـة أو طائـرة" ينطلق ويتسارع ويقر في محطته.

الحقيقة الأحمدية

ولا نبالغ إذ نقول: إن الحقيقة الأحمدية فـي فكر "فتـح الله" هي السـرُّ والمفتاح للفهـم والعلـم والعمـل، ولقـد أولاها "فتحُ الله" عنايـة فائقةً، فمَن وعاها -في عرفـه ومذهبـه- وعـى الحقيقـة كلَّهـا، ومـن تنكَّر لها غمره الباطل برمَّته.. وإن "البشـارة بالرسـول" الأكرم لم تُلقَ على مسـامع بنـي البشـر ابتـداءً، لكنها تمت "في مستوى الكون والزمان" قبل أن يُخلق الإنسان، والرسول عليـه الصلاة والسـلام ليـس رسـولاً للعالمين بمعنـى الجنّ والأنس فقط، كما يذهب إلى ذلك البعض، وإنما هو رسـول لكل الخلائق من الأزل إلى الأبد بلا استثناء.

وأمَّا في سـلَّم البشـرية، وتاريخ النبوات، ومنطق التشريع "فقد أرسل كلُّ نبي لفترة من الزمن ولمكان معيَّن، بينما أرسل ﷺ للناس كافة حتى قيام السـاعة". ورسولنا العزيز "هو الذي أعطـى الزهو والفخـر للزمان والمـكان"، وهو "سـيد الزمان والمكان، وشـارح معنـى الوجود، ومعنى الكـون والكائنات بصوته الجهوري"، ولذا فإن "صدى أقواله المباركة التي نطق بهـا قبـل عصور، يتجـاوز المكان والزمان ويصـل إلينا"، وإنا لنسـمعه اللحظةَ غضًّا طريًّا، واضحًا ناصعًا، لا تشـوّش عليه ذبذبـات ولا دمدمات، ولذا قال تعالى: ﴿لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ حقيقةً لا مجازًا.

ومثل هذا الرسول فقط، هو مَن يستطيع أن يحسَّ "استدارة الزمـان كهيئـة يوم خلـق الله السـموات والأرض"، وهو فقط مـن يمكنه أن يقوم "برحلـة وراء الزمان والمكان، ويرى من معجزات ربه وآياته الباهرة"، وهو فقط من يستقدم المستقبل، ويصـفُ مـا فيه مثل "وصفه لراحةِ يديه"، فيقول عن امرأة أبي طلحـة، وعن بلال بن رباح رضـي الله عنهم أجمعين: "أريتُ الجنـة فرأيت امرأة أبي طلحة، ثم سـمعت خشخشـة أمامي، فإذا بلال"، وهو عليه شـآبيب الرحمة إنما رأى وسـمع ذلك

لا خيالاً ولا افتراضًا، ولكنها الحقيقة حين تتجاوز الزمان ويستوي عندها الماضي والحاضر والمستقبل، فيصير "شريط الزمن"؛ "نقطةَ زمن واحدة" "ليس لها قبلُ ولا بعدُ"، ولا سابق ولا لاحق. ولا يدرك هذا المقامَ -يقينًا وعيانًا- إلا من اصطفاه ربُّ الزمان والمكان، واجتباه ربُّ اليقين والعيان.

ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن "تقارب الزمان والمكان، وعن تسارعهما"، "وهكذا فبوساطة كلمتين سحريتين وهما تقارب الزمان"، يشير رسول الله ﷺ إلى ما سيحدُث من "تغيُّر في مفهوم الزمن عندنا"، ونحن اليوم نرى أماراتِ ذلك، ونستنتج فيزيائيًّا المظاهرَ العلمية لذلك. وقد يعترض معترض بآية: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٨)؛ فنقول إن الآية حجَّة على المعترض لا له، ذلك أن حقيقة ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ تمتد إلى علم الغيب، ولا تقتصر على امتلاك النفع والضر. فرسول الله ﷺ لا يعلم الغيب ابتداءً، ولا يستطيع ذلك بذاته، ولكنَّ الله تعالى يريه الغيبَ متى شاء، ويخفيه عنه إذا أراد، فهو عليه الصلاة والسلام نذيرٌ عن الله للناس، ترجمانٌ عن المطلق للنسبي، سلام من الباقي إلى الفاني.

ومن آثار هذا التجاوز لسلطان الزمان والمكان في حق القرآن وفي حق المرسَل بالقرآن، تكون "أحكام الله تعالى الشرعية" متجاوزةً، وكذا أصولُ العقائد والأخلاق، فهي لا تبلى ولا يطالها التغيُّر والتبدُّل، ولا تتناقض ولا تخضع للأفكار والبدوات، ولا للفلسفات والسياسات... ومَن سَجَنها بين قضبان الاجتهاد البشري قتلَها، وشوَّه محيَّاها، وحُقَّ لنا أن نصنفه في قائمة الفراعنة والمجرمين الذين بسطوا الكون ظلمًا وإبادةً وتقتيلاً... والحال أنه لا يجمُل بنا أن نحاكم قاتلَ روح واحدة، ونصفِّق لجاحد المعنى، والخلود، والتجاوز، والأبدية... ألا ما أشدَّ قذارة "ظالم الزمن والمعنى". ولذا قال عليه الصلاة والسلام: "لا تسبوا الدهر، فإن الله ﷻ قال: أنا الدهرُ، الأيام والليالي لي، أجدِّدها وأبليها" (رواه الإمام أحمد).

جمالية الكون

والزمن في فكر "فتح الله كولن" يتناغم مع جمالية الكون، فيكون أحيانًا "شلاَّلاً" هادرًا، وأحيانًا أخرى "فانوسًا"، وأحيانًا "كائنًا يهرم ويشيخ" ويموت، وقبل ذلك يولد ويقوى... وقد يتحول إلى نسيج "ينسج الجهلُ عليه خيوطه" وأوهامه وأحزانه... ثم يتحول إلى "سفينة أو طائرة أو آلة نقل من أيِّ شكل كانت" ينطلق، ويتسارع، ويتوقف، ويقر في محطته...

أمَّا عن علاقة الناس بالزمن، فهي من الجمال والجلال بمكان، فمنهم من "ينحت الزمن لحسابه"، ومنهم من "ينحته الزمن طوال عمره"، وإذا ارتقى هذا الإنسان إلى مقام الصحابة "نظَّم الأزمنة التي يجب التضحية فيها بالمال والنفس تنظيمًا جيدًا"، وقد يُبتلى المرء فيحتاج إلى "الصبر" فيما "يحتاج إلى زمان ووقت"، ولا يستعجل ولا يقلق، لكنه مع ذلك لا يسوِّف ولا ييأس، فمثل هذا "الصبر" هو من "نوع صبر الدجاجة الحاضنة"... وقد يكون "الزمن" قيدًا وسببًا للمعضلات، فهنا يصف "فتح الله" دواءً وترياقًا عنوانه: "التحرر من قيود الزمان لحلِّ تلكم المعضلات".

ومن الناس "من يقطع شريحة الزمن دون أن يقع في قبضة القبض"، فيسمو سموًّا لامتناهيًا، إذ إن الذي يحيا بحياة القلب لا بالمادة الفانية فقط، ولا بالحسابات القصيرة اليومية لا غير... مثل هذا الإنسان يصير "كيانًا فوق الزمان"، ومثل هؤلاء يتخذون "الرضا مصعدًا، يستقلونه نحو هدفهم بسرعة تفوق الزمان نفسه"، فيحققون هذا الهدف بلا حاجز مادي ولا فاصل زمني ولا سبب مباشر... فسببهم ممتد بسبب إلى ربِّ الأسباب، مباشرة بلا واسطة.

وليس لنا من فضل -في هذا المقال- إلا أننا نصفُ سبائك الذهب التي أفرغها الأستاذ "فتح الله كولن" من فكره النير، وقد استقاها من النبع الصافي؛ "القرآن الكريم"، وأخذ أبجديتها من المعلم الأكبر؛ "محمد" عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقبل ذلك وبعده أودعها راضيًا مرضيًّا "قدرَ الله تعالى"، وتمثلها من أسمائه العليا، ثم حمل الهمَّ، وتحمَّل المسؤولية، واحترق، وتألم، وبكى... حتى أنزل تلكم المعاني على خطِّ الزمان والمكان، وزين بها جيد العصر والمصر، وسوَّاها عروسًا لكل صاحب قلب حي، فانتشت الدنيا، وامتد أريجها، وأورقت الأفلاك، وعم الربيع كلَّ قفر... ولم ننل بعدُ بغيتنا، ولكننا نملك بفضل الله تعالى شفاعة من سيد الزمان والمكان، فنغتنم الفرصة ولا نضيع الوقت لنقولها صريحة: "السياحة يا رسول الله". ثم إننا نملك بحول الله عينَ الله التي لا تنام، ونعلنها مدوية "لي مع الله وقت". ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

نور الدين صواش*



الظل المصلّي

أعجوبة هندسية في مسجد ديفريغي الكبير

المتأمل في هذا البناء يرى بوضوح روح الفنان المسلم الذي أبدع في نحت الصخور الصماء وحولها إلى كائن حي ناطق.. هذا وقد وفِّق المعماري السلجوقي "هرّم شاه بن مغيث الأخلاطي" لأن يشيد مسجدًا يبدو على بابه في وقت معين من كل يوم "ظل إنسان يصلي وأمامه كتاب مفتوح".

في عام ١٢٢٨م أمر "أحمد شاه" أمير إمارة "منغوجاك" السلجوقية ونجل سلطان سلاجقة الأناضول سليمان شاه، ببناء مسجد يجمع في كنفه علوم الدين والدنيا معًا.. وتم تكليف المعماري "هرّم شاه الأخلاطي" لتنفيذ هذه المهمة.. فبدأ بالعمل من حساب مواقع الشمس والنجوم في السماء.. وبعد دراسة مكثفة استغرقت معه حولين كاملين، قام "هرم شاه" بتحديد المكان الذي سيقيم عليه المسجد.. ثم شيد مسجدًا أثبت من خلاله براعته في الفن وتعمقه في العلم، حيث استطاع أن يزاوج المادة بالمعنى والعلم بالدين؛ نحَتَ الحجر وصمم النقوش وفقًا لزاوية انحراف الشمس وزاوية سقوط أشعتها قبل حلول وقت العصر بنصف ساعة تقريبًا، الأمر الذي مكّنه من إظهار "ظل إنسان يصلي" على الباب الغربي للمسجد يبلغ طوله أربعة أمتار، ويبقى قائمًا حتى انقضاء صلاة العصر ثم يغيب ويختفي.

يقول أولياء شلبي: "يسكت اللسان، ولم يعد القلم يكتب، ويقف الإنسان مشدوهًا أمام تصاميم وزخارف هذا الصرح الذي خرج إلى الوجود بعد جهود جهيدة وحسابات دقيقة من قبل معماريين بارعين وفنانين ماهرين صابرين متصبرين".

إنه مسجد ديفريغي الكبير المتربع على أعالي بلدة ديفريغي التابعة لمدينة سيواس في تركيا... المسجد الذي أدخلته منظمة اليونسكو في قائمة التراث العالمي عام ١٩٨٥... إنه خير دليل على مستوى العلم والمعرفة في ذلك الزمن، وأصدق برهان على مدى اهتمام المسلمين بالعلم الذي سخروه لخدمة الإنسانية جمعاء. ■

خبراء الأنفاق



تقوم حيوانات "الغُرَير" بحفر أنفاق فريدة من نوعها، حيث تبني الأنفاق القوية التي لا تتأثر بالزلازل أو الهزات الأرضية ولا تعرف الانهيار أبدًا..

لقد مُنح الغُرَير قدرةً خارقة على حفر أقسى أنواع التربة بمخالبه الحادة، ومهارةً عجيبة في تخطيط الأنفاق وبنائها، إذ يستهل عمله باختبار التربة ومدى صلاحيتها لشق الأنفاق، ثم يبدأ بعملية الحفر... يقوم بحفر العديد من الغرف داخل هذه الأنفاق للمعيشة، ويجعل الأنفاق على شكل طبقات متعددة ثم يربطها بفتحات تمكنه من الخروج الآمن منها حالَ تعرضه للخطر، ليس هذا فحسب، بل يقوم بتوجيه فتحات الخروج هذه، صوب المنحدرات الجنوبية ليحمي الأنفاق من الرياح الشمالية وشر السيول المدمرة. إنه مهندس أتقن كل الحسابات الهندسية، حيث استطاع نقل الحرارة المناسبة إلى هذه الأنفاق عن طريق نوعية تربتها التي تتشكل من الرمال البالغة نسبتها ٧٥٪ ومن التربة السطحية البالغة نسبتها ٢٥٪.

والملفت للنظر في كل هذه العمليات، هو كيفية طرح الأنقاض إلى خارج الأنفاق التي حفرها الغُرَير لأمتار طويلة في باطن الأرض.. إنه يستلقي على ظهره ويأتي غرير آخر ليرفع الأنقاض فوق بطن أخيه، فيمسكه من قدميه ويجره إلى الخارج.. تمامًا مثل عربة النقل اليدوية التي نستخدمها نحن البشر إبان عملية الإنشاءات.

هذا وقد يتميز الغرير بجسمه العريض الممتلئ، ومخالبه الطويلة الحادة، وسيقانه القصيرة القوية، ولونه الرمادي الذي يزينه خط طولي أبيض في مقدمة رأسه.. يبلغ طوله نحو ٧٥ سم، ووزنه نحو ٢٠ كغ. ولابد أيضًا أن نشد الانتباه إلى أن صغار الغُرَير -لا سيما الإناث منها- تلازم أُمَّاتها مدى الحياة وإن كبرت وأصبح لديها عائلات وصغار هي الأخرى. ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /
Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27
hira.cezayir@yahoo.com

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

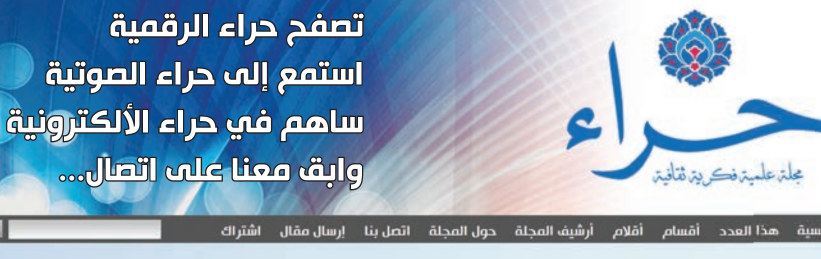
JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

أبحر في موقع حراء في حلته الجديدة















www.hiramagazine.com

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

أنسام الجِنان

من الجنان أنسام تهبُّ...
بها الكعبة تضوّع،
والطوّافون هذه الأنسامَ يستنشقون،
فيُسحَرون ويُذهَلون، ومن أشواقهم حولها يدورون،
ونورَها يستشرفون...
وكما الفراشة للنور عشَّاقة،
هكذا الجموع لربِّ النور مشتاقة...

* * *

